الفصل الأول

عناصر الطبيعة

Elements of Nature

ويشتمل هذا الفصل على العناصر التالية:

- الكوخ.
- الريف المصري.
- الطبيعة النباتية.
- الطبيعة الحيـــة.
- الطبيعة العلوية.

الفصل الأول

عناصـر الطبيعة

كان محمود حسن إسماعيل من أوائل الشعراء الذين اهتموا بالطبيعة في ريف مصر؛ حيث خص كثيراً من قصائد "ديوان الكوخ" لهذا الغرض. وقد امتزجت روحه في جميع مظاهرها حتى أورثها الحنين الدائب إلي تلك الحياة الهادئة بين الحقول الزراعية المترعة.

ولقد اكتشفت الدراسة عناصر مهمة في وصف الطبيعة .. ومن بين تلك العناصر ما يلي:

١- الكوخ:

وهو المسكن الذي يتخذه الفلاح قرب زرعه ليقيم فيه بعض الوقت حفاظا على محصوله.. ولعل هذا هو المعني المعجمي والقريب لأذهاننا من خلال فهمنا السريع لعنوان الديوان .. ولكن الشاعر ارتبط بالكوخ ارتباطاً وجدانياً ليس له مثيل. وكان يقضي فيه الأوقات الطويلة ليلاً ونهاراً لحاجة أو لغير حاجة .. فكان

يستذكر فيه دروسه، ويطالع فيه بعض الصحف وبخاصة "البلاغ الأسبوعي" ويمارس مع أسرته بعض أعمال الفلاحة، عزفا للأرض .. أو بذرًا للحب .. أو جنياً لبعض الثمار. وأحيانا نجده جالساً مع نفسه وسط كوخه الذي يطل علي نهر النيل جنوب "أبو تيج" يجتر الذكريات بحلوها ومرها .. قديمها وحديثها .. من غروب الشمس حتى طلوعها، دون كلل أو ملل.

وعن أهمية الكوخ - بالنسبة للشاعر - أنه قد ذكره في الديوان حوالي إحدي عشرة مرة؛ ثم أتبع ذلك بثلاث قصائد أخري، الأولى "ساعة في الكوخ"، والثانية "أغنية مع الكوخ، وكلتاهما في ديوان "قاب قوسين"، والثالثة "قصة الكوخ" كانت في ديوان "لابد".

ونظراً لأهمية الكوخ الكبيرة على نفس الشاعر، ولخضوع جوارحه لهيبته فإن الشاعر يجعل من الكوخ المثير المبدئي لوصف بعض مظاهر الطبيعة .. مما دفع الباحث إلى وضع الكوخ ضمن عناصر الطبيعة على سبيل الرمز أو المجاز.

فالكوخ لم يعد مكان الشاعر الذي يحرس من داخله زرعه، بل أصبح ملاذه الذي يشكو إليه همومه كلما أحاطت به .. وأصبح يمثل قضية للرق .. حيث يعد الشاعر نفسه أحد الفلاحين الذين حكم عليهم الزمن الجائر بالرق سنين طويلة .. إلى أن ثار الكوخ ثورته على الظلم وأخرج الفلاح من ظلمات الاستعباد داخل الكوخ إلى نور الحرية في المدينة والسعادة الدنيوية ... والدليل على ذلك أن الشاعر - بعد قيام ثورة ١٩٥٢م - كان يزور الكوخ ويمكث فيه بعد طول غياب، احتفالا بتشييع جنازة الكوخ؛ لأن قيوده قد مضى زمانها، وانقضى نحبها.

ومن المرات التي ذكر الشاعر فيها "الكوخ" قوله:

تحلَـــم أن الكـــوخَ في جنَّـــةٍ   يزهـــو عليهـــا الـــسُّندس العـــاطِرُ

ثم يتبع ذلك بقوله: [١]

فاســـتيقظوا والكـــوخُ في غفلَـــةٍ مـــا دار فيـــه بـــالمنى دائـــرُ

فالشاعر في بداية هذه القصيدة "قصيدة الكوخ" يدعو للبكاء علي الكوخ والتماس نور الهداية منه .. وهذا ما كان عليه شعراء العصر الجاهلي ثم يتبع ذلك بوصف الكوخ وحال أهله فيه .. وقت غسق الليل ورهبة سكونه.. فإن منهم من أمعنت عيونه في الكرى، وظلت تحلم بمكانة عظيمة في الجنة لهذا الكوخ تليق بقداسته .. وتستمر الأحلام هذه إلى أن تظهر تباشير الصباح وتمر عليهم الساريات من الفلاحات .. فإذا بهم يستيقظون من أحلامهم وقد وجدوا أمامهم الكوخ على حالته التي كان عليها .. من البؤس والشقاء. ثم يمضى الشاعر بعد ذلك في وصف بعض مظاهر الريف؛ حيث جمال الحقول، وجداول الماء الصافية .. إلخ، حتى ينهى قصيدته بتجديد الدعوة إلى البكاء على ذلك الكوخ.

ولعلنا نلاحظ هنا أن للشاعر قدرة على تصوير الكوخ بين الحلم واليقظة، وهذه مقابلة بديعة جاءت لتؤكد المعنى الذي يرمى إليه الشاعر. ولذلك يقول الدكتور محمد على هدية: "من الظواهر التي تبدو للدارس لأغاني الكوخ كثرة المقابلات بين المعاني المتضادة؛ لتأكيد المعاني التي يرمى إليها الشاعر وتوليدها"[٢].

ومرة ثانية، ومن قصيدة " كنز الذهب الأبيض" نراه يقول: [٣]

وارث للمـــسكينِ عيـــشاً أســـوداً رانَ في كـــوخٍ حقـــيرٍ مُتّـــدَاعْ

فالشاعر في بداية القصيدة قد وصف زهر القطن وصفاً بارعاً جميلاً، يدل

(١) الديوان، ص ١٨.

(٢) شعر محمود حسن إسماعيل - دراسة فنية - ص ١٠٧.

(٣) الديوان، ص ٢٦.

على قدرة الله عز وجل وإبداعه المنقطع النظير. ولكن في الصورة المقابلة لذلك يرسم الشاعر حالة البؤس التي بعيشها الفلاح المصري الذي يعيش في كوخ حقير لا قيمة له عند قوم يسكنون القصر .. الذي لم ينشأ إلا علي كتف ذلك الفلاح المسكين.

ومن الملاحظ أن الشاعر يجمع بين وصفه للكوخ والحالة الاجتماعية للفلاح المصري .. من أجل أن يلفت أنظار الآخرين نحو الفلاح، وألا يجحدوا فضله، أو يضنوا عليه بما لديهم من نعم. وهذا يدل على مبدأ الشاعر الأخلاقي الذي رسمه لنفسه في أول باكورة شعرية له .. وهذا أيضا ما أشار إليه الدكتور محمد علي هَديّة في قوله: "والحق أن ما أشار إليه الدكتور - مهدي علاَّم - هو ما يميز قصائد أغاني الكوخ عن غيرها من الشعر الذي قيل في وصف القرية أو الفلاح .. فشاعرنا لا يصف الريف أو يتغنى بمجد الفلاح الذي شيد حضارتنا القديمة للدعاية السياسية أو للاتجار بالقضية بغية تحقيق نفع شخصي، بل هو يري بؤساً وفلاَّحاً كادحاً .. يهتضم حقه ويجحد فضله" [(١)].

ومرة ثالثة، وفى قصيدة "الفردوس المهجور" يقول الشاعر: [(٢)]

تعـــودُ إلى كوْخِهـــا في الغـــروبِ وقد حاكت الشمسُ قلبَ الحَسُودْ

لقد وصف الشاعر جمال الريف وما فيه من سحر يبهر العيون العاشقة للروض اليانع الأخضر، وللظلال الوارفة، وللنسائم العليلة. ولم يكتف بذلك بل

---

(١) شعر محمود حسن إسماعيل - دراسة فنية - ص ٩٥، وكان هذا رداً على ما قاله الدكتور مهدي علام في جريدة المقطم بتاريخ ١٩٣٥/٢/١٩م: "إن هذا التكرار .. وهذا الإصرار دليل العقيدة الراسخة لا الفكرة السانحة أو الخطرة الجامحة تمر بخيال الشاعر فيقيدها ثم يمر بخياله نقيضها فلا يتأثم أن يسجلها".

(٢) الديوان، ص ٣٢.

قابلها بصورة الساقية وهى تندب تحت ظل شجر الكروم على الثور الذي يشكو إسار القيود، ثم يصور بعد ذلك حاملة الجرة التي تعود إلى كوخها وقت غروب الشمس في جمال ودلال. ولعل هذا المشهد جاء به الشاعر ليطفئ نار الغضب التي اتقدت في صدره حينما صور السواقي وهى تنوح وتتألم على مشهد الظلم الذي تراه أمامها؛ حيث الثور الذي شدت في رأسه حبال الذل، وقيدت حريته يد الظلم.

وهناك نماذج أخرى لوصف الكوخ في الديوان، جاءت على النحو التالي:

١- في قصيدة "القرية الهاجعة" يقول الشاعر: [١]

بـــائس شَــفَّه القُنـــوعُ فـــأغْفَى في حمـــى كوخِـــه القُنـــوعُ الأبِـــيَّ

٢- وفى قصيدة "وقفة حيال القصر" نعجب لقوله: [٢]

هجـــرتُ كـــوخي .. وهَـــوي ســـحْرِهِ
وُعـــــشُبِهِ الزَّاهـــــي، ونُـــــوَّاره
وجئـــــتُ للقـــــصر أنـــــادي بـــــه
معبـــــودةً غابـــــــتْ بأســـــتارِه

والعجب هنا أن الهجر لم يكن نابعاً عن كراهية الشاعر لكوخه .. لأن الشاعر ينتقل حيال معبد غرامه - إلى القصر - ولذلك كان الهجر جميلاً مقبولاً من الشاعر.

---

(١) الديوان، ص ٥٢.

(٢) الديوان، ص ٦٦، ومن الملاحظ أن هناك تصارعاً بين الكوخ والقصر كتصارع الخير مع الشر، أو "كصراع الحرمان مع الإشباع" علي حد قول الدكتور مصطفي السعدني، في كتابه، التصوير الفني، ص ١٥٤.

٣- أما في قصيدة "دمعة بغى" فيقول الشاعر: [١]

وثـورةٍ مـنْ دُخـان الكـوخ فـائرة تغلي علي بائس في الكوخِ محروبِ
كم بعثرتْ وَجْدَها في الجوِّ صاخبةً فطـارَ والـريحَ في شـتَّي الأهاضـيبِ
تنفـستْ بـضناه المـرّ شـاكيةً آلام شـيخٍ رقيـقِ العـيشِ مغلـوبِ

يا له من تصوير عجيب لهذا الكوخ الذي يغلى ويتصاعد منه الدخان تضامناً مع هذا الفلاح المسكين الذي حرم طيبات أحلت له !!

٤- وأما في قصيدة "شاعر الفجر" فيقول الشاعر: [٢]

والـديك لمـّا رن في سَـطْحِهِ صـوتُ نـديُّ اللحـن زاكـي الـنّغَمْ
كبَّـر حتـى خـفَّ مـن صَـدْحِهِ مـن نـامَ في الكـوخ ومـن لمَ يَـنمْ
ورتَّـل الأنغـامَ في صـبْحِهِ يُطْـرِي بهـا النّـوَر ويَهْجـو الظُّلَـمْ

ومن هنا تتضح لنا صورة الكوخ التي رسمها الشاعر في ديوانه .. ولكن تبقى هناك بعض الملاحظات التي يجب على الباحث ذكرها، وهى:

أولاً: الإصرار من الشاعر أن يجعل من الكوخ الشرارة الأولى التي تنطلق لتحرق قوى البغي والشر .. وهذا عن طريق طرح قضية الفلاح المسكين والحالة التي آل إليها .. من ضعف وفقر وذل.

ثانياً: إن نزعة الشاعر نحو طرح قضية الفلاح بهذه الصورة القوية إنما تدل على روح الشباب والثورة داخل كيان الشاعر الذي يشعر بمدى تفوقه على أبناء الطبقات الثرية الظالمة.

---

(١) الديوان، ص ١١٨.

(٢) الديوان، ص ١٢٨، ١٢٩.

ثالثاً: كثرة المقابلات بين صورة الكوخ وصورة القصر تؤكد على أن الشاعر لن يتوقف عن تصوير مأساة الفلاح؛ حيث إنها قضيته الأولى - من خلال وصف بعض عناصر الطبيعة - التي تستأثر باهتمامه العقلي والشعوري ولهذا فهو يتحين الفرص لإثارتها.

٢- الريف المصري .. وعناصره

لقد عاش محمود حسن إسماعيل سنوات طفولته وصباه في أحضان قريته النخيلة، وفتن بجمال طبيعتها التي تفتحت عيناه عليها حتى جعلها منطلقاً له في سماء الخيال الشعري، وجعل من العقوق أن ينبت الشاعر في بيئته ولكنة يتغني بغيرها.

ولعل جمال الريف في مصر على وجه العموم، وفى قرية الشاعر على وجه الخصوص كان دافعاً مهماً وسبباً قويا لوصف الشاعر للريف، ولذلك يقول بنفسه: "ريف ناعم الأظلال وريف الأفياء، نصرت قيعانه تلك اليد السوداء التي شمرت لتثميرها ... في كل هذا الجمال الطبيعي الذي تبلج به ريف مصر، وفي كل هذا الشقاء الذي اكتوت بناره نفوس بريئة لا تعرف من الحياة إلا الإخلاص لعملها، بيد أنها محرومة من أتفه متع الحياة المترفة في المدينة، لا يري الفن في مصر وحيا لإلهامه، ولا خاطرة تثير فيه نشوة العمل على إبراز الجمال المخبوء في وادي النيل، ليري الناس إلي أي حد نعتز بوادينا ونفاخر بما فيه من روعة وجمال"[(١)]

ولقد جعل محمود حسن إسماعيل الريف المصري أحد عناصر الطبيعة التي هي لوحة فنية رائعة ذات أصباغ وألوان تثير شغف الفنان، وتحرك فيه الميل إلى تصويرها في فنه. ومن هنا انطلق شاعرنا في وصف وتصوير الريف المصري، مندمجاً فيه بآلامه وآماله ليعبر عن عمق أصالته لفنه، وإخلاصه لقضايا وطنه،

---

(١) الديوان، ص ١٧٨، ١٧٩.

واهتمامه بشأن الفلاحين في قريته.

ومن الصور الرائعة التي رسمها الشاعر للريف، قوله: [١]

وجنَّـــةُ حولـــكَ غَيْـــسانةُ ريحانُهـــا منَفتـــقُ زاهـــرُ
وجـــدولُ يرويـــك مُعْـــذَوْذبُ سَلْـــسالهُ مـــصطَفِقُ زاخـــرُ
ونخلَـــةُ فوقـــك تهـــدِى الجنَـــى والظـــل يـــستَدْري بـــه العـــابرُ
تهتـــزَّ للـــسارى ونخّـــلُ الـــورى في القصر مرهوبُ الحمى كاشرُ
يَهْنيـــكَ عـــذراءُ إذا أقبلـــتْ للنيـــل أصـــغَى موجُـــه الهـــادرُ
يَـــسْتَلْهمُ العفـــةَ مـــن جـــرَّةٍ يحنـــو عليهـــا مُلَـــكُ طـــاهرُ

إلي قوله:

لهـــا بزيْـــف الغـــرّبِ في مُدْنِـــه والريـــفُ مـــن أوجاعِـــه حـــائرُ

وهناك صورة أخرى تشير إلى قدرة الشاعر على تصوير مظاهر الجمال في الريف، جاء بها في قصيدة "الفردوس المهجور" - ريف النيل - حيث قال: [٢]

تفجَّـــرَ في صَـــفْحتيهِ الجمـــالُ ورفَّ علـــي جانبـــهِ الخُلـــودْ
وطـــوَّفَ رَيْحانـــه في الجنَـــانِ وفي كـــلَّ منـــضورةٍ بـــالوجودْ
يُفـــتش عـــنَ روْضَـــةٍ بـــرّةٍ بفّـــيءِ الظـــلالِ الرّطيـــبِ الرغيـــدْ
وعـن سِحْرها في ركـابِ الـضحى وقـــد لَبـــسَتْ أُرجَـــوانَ الـــوروْ
تـــأطَّرُ في حلَّـــةٍ مـــن شـــعاعِ مُوشَّـــي بطـــل الـــصباح النـــضيدْ
وترفـــل في ســـندسِ ضـــاحكِ تـــرنَّح مـــن ســـكْرةٍ بالنـــشيدْ

(١) الديوان، ص١٩، ٢٠، ٢١.

(٢) الديوان، ص ٢٧، ٢٨، ٣٢.

إلي قوله:

يرفـــــرفُ مـــــن غـــــادةٍ عفَّـــــةٍ محجّـــــةِ الحـــــسْنِ ميْـــــساءَ رُودْ
كـزَنْبقَـــــةِ الفجْـــــرِ في طُهْرهـــــا وأحلامُهـــــا كابتـــــسامِ الوليـــــدْ

ومن خلال الصورتين الماضيتين للريف يتضح لنا ما يلي:

أولاً: إن عالم الريف عند محمود حسن إسماعيل مثالي - في أغلب صوره - وتلك نزعة رومانسية، ظهرت واضحة في الصورتين الماضيتين.

ثانياً: إن مظاهر الريف كلها تنطق بالجمال، وتتصف بالخلود .. حيث الجو معطر بالرياحين، والروض ينشر ظلاله الوارفة ليسحر بوروده الحمراء النواظر وقت الضحى.

ثالثاً: إن فتاة الريف تظهر كثيرًا عقب تصوير الشاعر لمظاهر الريف، حيث تبدو عذراء - في معظم الأحيان - عفيفة نقية طاهرة، لا تحمل إثمًا أو تكن في صدرها حقدًا لأحد وكأنها حوراء من حور الجنة.

ولعل تشبيه الريف بصورة الفتاة المحجبة له دلالتان:

الدلالة الأولى: تشير إلى أن عالم الريف له صفات معينة من القيم الرفيعة، والأخلاق السامية، والبساطة الحانية، والمثالية العالية .. كل ذلك يجعل النفوس تواقة لرؤيته أو مستمتعة بقراءة وصفة.

الدلالة الثانية: تشير إلى أن عالم الريف يتميز على عالم المدينة .. ولهذا كان حقًا على الشاعر التنبيه على العودة إلى وصف الريف، والرجوع إليه .. والأمثلة على ذلك كثيرة.

ففي قصيدة "دمعة بغى" - ريفية تسقط في المدينة - يقول الشاعر: (١)

في الريَّف فتَّح للورى زهْرِى | وسرى بطُهرى في مغانيهِ
كحمائمِ البستان لا أدْرى | من سِفْرِهِ أوْهى معانيهِ
ونزلتُ في بلدٍ شهدتُ بهِ | قدْسَ الحجابِ ممَزَّق الستر
مشتْ الفضيلةُ من كواعَبَه | مشْيَ الذليلِ بربْقَةِ الأسْرِ

ورؤية محمود حسن إسماعيل إلي الريف تقترب كثيرا من رؤية شعراء أبولو "فالريف عند هؤلاء الشعراء يمثل الحياة الخالية من الزيف والتصنع الذي أفسد المدينة فأبعدها عن المثالية والجمال الذي ينشدونه في حياتهم وأشعارهم. ففي هذا الريف الحياة التي برأها الله - سبحانه - وصور فيه الجمال الحق، والحب الطاهر. والإيمان الصادق، والقناعة الراضية. ومن هذا المنطلق وجدنا شعراء أبولو يندفعون إلى الريف اندفاعاً يستضيفون بنوره، وينهلون من خيره ويتدثرون بدفئه وحنانه"(٢).

رابعاً: من الملاحظ أيضا أن محمود حسن إسماعيل يجعل التشخيص من وسائل تشكيل الصورة للوحة الريف، فيبث في عناصرها الحياة والحركة لتكون أشخاصاً تشارك الشاعر مشاعره وأحاسيسه.

ولكن .. تبقي هناك محاور أخرى مهمة في وصف الشاعر للريف المصري، لعل أهمها ما يلي:

---

(١) الديوان، ص ٩١، ٩٣

(٢) في الشعر العربي الحديث، ص ٢٨. ومن شعراء أبولو الذين اهتموا بوصف الريف على النحو السابق: أبو شادي، في وصفه للقرية المصرية. والهمشري، في وصف قريته "نوسا البحر" التي تقع بالقرب من المنصورة. وعلى محمود طه، في وصف ريف دمياط والسحرتي، في وصفه لروضة ريفية في حديقة "دهتورة" وهى إحدى الحدائق المصرية..وغيرهم كثير.

أ- الساقية

لقد أحب شاعرنا الساقية، وفتن بها، وجعلها علامة بارزة في شعر الطبيعة، وبخاصة في وصف الريف المصري؛ ولذلك كانت عنوانًا لإحدى قصائده في ديوان أغاني الكوخ "القيثارة الحزينة" و "سواقي إبريل" في ديوان "قاب قوسين".

وللساقية صورتان عند الشاعر: الأولى صورة الساقية وهى تئن وسط الحقول، ولكن الفلاح يهتز فرحاً لهذا الأنين لأن من دمعها رى نبتته وسقيا غراسه. والصورة الثانية صورة الساقية التي تصدر أنغام حزن لا على الفلاح فقط، وإنما على الثور الذي يدور فيها: حيث إنه معصوب العينين لا يعرف طريق النور، يمنح النبات ماء الحياة ويحرم هو من نورها وحريتها. المهم الصورتان كلتاهما تتفقان في معنى البكاء مهما تعددت أشكال الساقية.

ففي قصيدة "الكوخ" يقول الشاعر: (1)

تبكـــى ســـواقي الحقـــلِ أشـــجانَه وهـــا بكـــاهُ مـــرةً شـــاعرُ

وفى قصيدة "الفردوس المهجور" يقول: (2)

ونَدْابـــةٍ تحـــت ظـــل الكـــرومِ علـي الثـورِ يـشكو إرسـارَ القيـودْ
تَـــضِجُّ علـــي دائـــرٍ كـــالرَّحي يـــذوق مـــن الـــسوْط ذُلَّ العبيـــدْ
مـــضيعَّة النْـــوح كـــم أرســـلتْ شـــجاهاً يـــئنُ أنـــينَ الـــشريدْ
وكـم ضَـحِكَ الزهـرُ لـمَّا بكـتْ وهـزَّ علـي الـدمعِ رخْـصَ القـدودْ
فلمـــت خبـــا دمعُهـــا صَّـــوحَتْ أفانينـــهُ واعـــتراه الركـــودْ
أيحيـــا علـــي فـــيضِ أجفانِهـــا ويـــأبي لهـــا الـــصفو؟ يـــاَللْجحودْ

---

(1) الديوان، ص ٢١.

(2) الديوان، ص ٣١.

ويلاحظ الباحث أن الشاعر في الصورة الأولى للساقية جعل بكاء السواقي على أشجان الكوخ الذي لم يلتفت إليه مرة شاعر .. وكأن هذه الإشارة همسة عتاب للشعراء الذين لم يهتموا بالكوخ الذي دائما يشارك الفلاح آلامه وهمومه وأحزانه.

وفى الصورة الثانية يشبه الشاعر الساقية بالمرأة التي تندب وتكثر الشكوى والبكاء - تحت ظل شجر الكروم - على الثور الذي يشكو إسار القيود. والملاحظ هنا أن الندب تحت ظل شجر الكروم ولم يكن تحت الشمس الحارقة..

ليؤكد على عمق الأصالة العربية للمرأة الريفية لا المرأة الجاهلية التي كانت تشق الجيوب وتلطم الخدود تحت وهج الشمس المحرقة .. فهذب الشاعر بذلك صورة الندب للساقية وهي تحت ظل شجر الكروم ذات الأفنان الباسقة والأغصان الملتفة .. ولذلك كان للبكاء شأن عظيم يقع من القلوب بمكان.

وتجدر الإشارة أيضا إلى قيمة المقابلة التي جاء بها الشاعر بين ضحك الزهر وبكاء الساقية . فهذه صورة رائعة قلما نجدها عند الشعراء المعاصرين في هذا الشكل التركيبي البديع الذي جاء ليؤكد على الندب الذي سرعان ما تحول إلى نوح .. وترجم بعد ذلك إلى بكاء .. هذا البكاء سيكون مانحا لحياة الزهور وجميع أنواع النباتات.

ومن هنا تظهر قيمة الشاعر المبدع الخبير بأدواته الفنية وتجربته الشعرية .. لأن الإحساس بهموم الفلاح قد امتد إلى سواقي الحقل التي حرك الشاعر فيها الوجدان، فأصبحت تبكى وتئن لمصاب الآخرين. ولعل هذا كان نتيجة طبيعية لتفاعل الشاعر مع عناصر الطبيعة، واقترابه الشديد منها، وقدرته على إقامة الحوار بين عناصرها.

وأيضا في قصيدة "القيثارة الحزينة" أي "الساقية" يرسم الشاعر صورة للساقية وهى تنوح .. ولم يستجب لها الزهر ولا مغنى الطير، بل لم يسمع لنواحها وهى تشكو إلى الدهر ما آل إليه الثور وهو مكبل بذل القيود ..

وفى ذلك يقول: [١]

ناحــتْ فــلا الزهــرُ علــي عــودِه ... ألقــي عقــودَ الطــل مــن جيــدِهِ
ولا مغنّـــي الطـــير في وكْـــرِهِ ... رقَّ لهـــا وازورَّ عـــن عـــودِهِ
لم يـــسمع النَّـــوْحَ لمخنوقَـــةٍ ... تـشكو إلـي الـدهرِ أسـي قيْـدِهِ
خرســاءُ لكــنْ صــوتُها صــارخ ... يـذيب قلـب الـصخر مـن وجـدِهِ
لهـــا عيـــونُ دائمـــاتُ البكـــا ... بمـــدمعٍ كالـــسيلِ في رفْـــدِهِ
تفْنـى دمـوعُ النـاسِ مـن فيـضها ... ودمعُهـــا بـــاقٍ علـــي عَهْـــدِهِ
تَحْيـــا زروعُ الحقـــلِ مـــن ريَّـــهِ ... مـــن سوْســـنِ النَّبْـــتٍ ومـــنْ نَـــدِّهِ
ويزدهـــى الزَّهـــرُ إذا مـــا جـــرى ... منهلُهـــا الـــصافي علـــى خـــدِّهِ
يفـــتر إن ناحـــتْ ويـــذوي إذا ... لم تـــسكبِ الـــدمعَ علـــى مَهْـــدِهِ
حياتـــــهَ فيهـــــا ولكنِّـــــه ... عـــقَّ الهـــوي حرصـــاً علـــي عـــودِهِ

وفي قصيدة "عند زهرة الفول" يقول الشاعر: [٢]

خفقـتْ حولهـا الـدَّوالي [٣] فريعَـتْ ... وتأسَّـــت علـــي الأســـير المقيَّـــدْ
لطمـتْ سُـوقَها علـي الثـوْر حزنـاً ... حـــرّة فُجَعَـــتْ علـــي مـــستْعبْدْ

وأخيراً .. ومن قصيدة "من فم الراعي" يقول أيضاً: [٤]

---

(١) الديوان، ص ٦١-٦٣.
(٢) الديوان، ص ٧٨، ٧٩.
(٣) الدوالي: جميع دالية وهي الساقية.
(٤) الديوان، ص ١٠٨، ١٠٩.

وكـــــمْ نـــــاعورةٍ[١] ناحـــــتْ علـــــي مُـــــسْتَعْبدِ فيهـــــا
أســـيرِ الـــسَّوْطِ كـــم ضـــجَّتْ لـــــه يوْمـــــاً أغانيهـــــا
شـــرْبنا المـــدمعَ الـــصَّا في نمـــــيراً مـــــن مآقيهـــــا
ونادمْنـــا ظـــوامي الزهـــرِ حتـــــى هـــــامَ صـــــاديها
ورُحْنـــا ننهـــبُ الخطّـــوّ ســــكاري بـــين واديهـــا

ومن الملاحظ أن الشاعر يؤكد على الربط بين الساقية والثور في ظل وصفه للريف؛ حيث تأتى دائما في صورة حزينة .. على الثور الذي سلبت حريته، وأصبح أسيراً لغيره .. مما يعمق دلالة الشقاء والبؤس لدي الثور .. الذي قد يرمز إلى الفلاح المصري ..

ب - النيل

لقد أحب الشاعر النيل حباً جماً - وجعله أحد المعالم البارزة في وصف الطبيعة؛ ولذلك خصه بسبع قصائد[٢] فضلاً عن المقاطع الشعرية المختلفة، والأبيات المتناثرة داخل القصائد، والتي يصل عددها إلى سبعة عشر بيتاً تقريباً.

ومعظم الأبيات التي خصها الشاعر لوصف النيل تشير إلى أنه مظهر من مظاهر الجمال للطبيعة الريفية المصرية .. وأنة لا يتصف بالخلود فقط، بل إنه هو الذي يهب للزمن الخلود ، وفى ذلك يقول الشاعر: [٣]

---

(١) الناعورة. ومعناها الساقية.

(٢) القصائد السبع في الأعمال الكاملة للشاعر وهي: "عيد النيل والطبيعة" ص ٤٥٩، : دجلة والنيل" ص ٥٥٧ وهما من ديوان "الملك". و "النيل" ص ٥٥٧ من ديوان "أين المفر" . و "النيل نعسان". ص ١٢٢٩، "معجزة على النهر" ص ١١٣٣ وهما من ديوان "قاب قوسين" و "أغنية للنيل" ص ١٥٨٧ من ديوان "صلاة ورفض". و "النهر" ص ١٨٦١ من ديوان "صوت من الله".

(٣) ديوان "أين المفر"، المجلد الأول، ص ٧٣١.

يـــا واهـــبَ الخُلـــد للزَّمـــانِ يـــا ســـاِقيَ الـــشَّعرِ والأغـــاني
هـــاتِ اسْـــقني واســـقني ودعْـــني أَهـــيمُ كـــالطيرْ في الجِنـــانِ
يـــا ليـــتني موجـــةُ .. وأحْكـــي إلـــي لياليـــكَ مـــا شَـــجاني

ولا يزال النيل مصدرًا لإلهام الشعراء، وإثارة لشغف الفنانين؛ حيث يحرك النيل ميلهم إلى تصويره والافتتان به والتعجب منه. ولذلك يقول الشاعر - في تعليقه على الديوان -: "والطبيعة المصرية لوحة فنية رائعة، وشاها النيل منذ فجر الله ينابيعه في هذا الوادي الخصيب بأصباغ فذة وألوان تثير شغف الفنان، وتحرك فيه الميل إلى تصويرها في فنه" (١).

وفى قصيدة الفردوس المهجور - ريف النيل - ما يشير إلى اهتمام الشاعر بريف النيل، أو نيل الريف - إن صح التعبير - حيث يصور الاثنين معاً، كأنهما وجهان لعملة واحدة؛ وفى ذلك يقول: (٢)

ترقْـــرَق في مَهْـــدِها جـــدولُ عطـوفُ علـي الزهـرِ عـذبُ بَـرُودْ
تَسلْـــسَلَ مـــن نيلِـــهِ كالأمـــاني تـــرفّ علـــي ناعمـــات المهُـــودْ
مؤججـــةُ القُـــرْصِ ملهوفـــةُ علـــي النيـــلِ ترجـــو لـــه أنْ تعـــودْ
فتلهمُـــهُ العهـــدَ في قُبلـــة مـن الـشوق تـذكو كنـارِ الوقـودْ
وتـــسبحُ في لُجَّـــةٍ مِـــنْ دمٍ علـــي أفْقهـــا مـــن غـــرامٍ شـــديدْ
إذا عـــشقَ النيـــلَ عـــرشُ الـــسماءِ فواديـــه جنَّـــةٌ هـــذا الوجـــودْ

(١) الديوان، ص ١٧٧.
(٢) الديوان، ٣٠، ٣٢، ٣٣.

وهناك أبيات مفردة في قصائد متعددة: نحو قوله في وصف مظاهر القرية التي زانها النيل، وأعاد للحياة بهجتها: (١)

إيهِ يا قريتي لقدْ شفَّ نايي شَجَنُ في الحَشَا عظيمُ الدَّويَّ
وشَّحَ النيلَ شاطئيهْا بأبْراد ضوافٍ علي الربُّي والقُنَّي

وليس غريباً على سنبلة القمح أن تفخر بنفسها لأن ماءها من ماء النيل، ومصدر زادها من ثراه الخصيب؛ وذلك في قوله: (٢)

منَّ له في الأرضُ ملْكُ مثل مُلْكي في الكثيبِ؟
موردي النيل وزادي من ثري النيل الخصيبِ

ثم عن أسرار النيل التي تحير العقول حينما يبدو وسنانا، يقول الشاعر: (٣)

ولاحَ النيلُ وسناناً تَرُوعُ الفكرَ أسرارُه

وهكذا وصف الشاعر النيل العظيم - نبع الإلهام للشعر والفن - وصفاً رائعاً، معتمداً على الصور المجازية التي تساعد على فهم الصيغ التركيبية التي شكَّل الشاعر منها قصائده في وصف الريف المصري.

ج- حاملة الجرة

لقد جعل محمود حسن إسماعيل للطبيعة الفضل الكبير عليه في إلهامه

(١) الديوان، ص ٥٥، ٥٦. انظر الديوان أيضاً، ص ٢٠، ٢١، ٢٦، ٣٩، ٥٩، ٧٩، ٨٩، ١١٨، ١٣٤، ١٤٨.
(٢) الديوان، ص ٧٣.
(٣) الديوان، ص ١١٠.

روائعها الخالدة .. وكذلك جعل للحب فضلاً أكبر عليه في كشف المخبوء من جمالها ورصد إحساسه لجميع دقائقها، وصهر المشاعر الوجدانية التي يلمسها غرام الشاعر في نفسه، ومزجها بكل ما يحيط به من صور الطبيعة المختلفة [١].

وكانت صورة حاملة الجرة إحدى اللقطات الجميلة التي جعلها الشاعر في اللوحة التصويرية التي رسمها للريف المصري وشاهدها العالم الغربي في متاحفه ومعارضة الفنية .." مثل الصورة التي عرضها المثال المصري "محمود مختار" في متاحف باريس .. من حاملة الجرة التي صورها على شاطئ النيل .. إلى بائعة الجبن التي نراها في الأسواق الريفية، إلى غير ذلك من وحى الفن المصري التي تتوثب فيه روح القومية التي طالما ندبناها في أدبنا الحديث، والتي انحرف عنها الشعر بوجه خاص انحرافاً عطله عن مجاراة الفنون الرفيعة الأخرى" [٢].

وللمرأة نموذجان في ديوان أغاني الكوخ: الأول يتمثل في صورة المرأة الريفية العذراء الطاهرة.. والتي تحمل جرتها في الصباح متجهة نحو منهل صاف كريق الكوثر الدافق. النموذج الثاني يتمثل في صورة المرأة المحبوبة التي يتغزل فيها من خلال عاطفة صادقة، شاء الحب له أن ينفثها متباينة الألوان.

ولعل النموذجين السابقين يمثلان نظرة الشاعر للمرأة كمصدر للإلهام الفني .. قبل أن تكون وسيلة للتعاطف الجنسي المجرد من النظر الروحي الذي تخلقه طبيعة الجمال في نفس الفنان [٣].

وهناك ثلاثة أمثلة مهمة في الديوان تبين صورة حاملة الجرة التي هي منظر جميل من مناظر وصف الريف، وهى كالتالي:

---

(١) انظر الديوان، ص ١٨٢.

(٢) الديوان، ص ١٨١، ١٨٢.

(٣) الديوان، ص ١٨٣.

١- في قصيدة "الكوخ" يقول الشاعر: [١]

يَهْنيكَ عذراءُ إذا أقبلتْ ... للنيل أصغَي موْجُه الهادُر
يَستلْهم العَّفةَ من جرَّةٍ ... يحنو عليها مَلَكُ طاهرُ
قُدْسيَّةُ القلبِ بها عصمةُ ... لم يُؤْتها نسرُ السَّما الكاسِرُ
كأنما رِيشَتْ جلابيبها ... فالويلُ أن مرَّ بها فاجرُ
حرائرٌ أطْلَعنَ عرسَ الهوي ... فيك حديثاً نبرُه ساحرُ
خَبأتْ كَنْزَ الحسْنِ في أيكةٍ ... والقصر ما حجَّبَه ساترُ
شتَّان ما الدرَّ بأصدافه ... والدرَّ في كوْمتِهِ بائرُ

٢- وفي قصيدة الفردوس المهجور "ريف النيل" يقول الشاعر: [٢].

يرفرفُ من غادةٍ عَفّةٍ ... محجَبةِ الحسْنِ ميْساءُ رودْ
كزنْبقةِ الفجر في طُهّرها ... وأحلامُها كابتسامِ الوليدْ
تعودُ إلي كوخها في الغروبِ ... وقد حاكت الشمسُ قلبَ الحَسُودْ

ويتضح من المثالين السابقين أن فتاة الريف - كما تخيلها الشاعر - نقية طاهرة لا تعرف طريقاً إلي الرذيلة، وأن عالم الطبيعة الذي يصوغه الشاعر من الريف هو عالم المثل الذي يتحقق فيه ما لا يتحقق في دنيا الواقع.

٣- أما في المثال الثالث فيأتي في قصيدة عروس النيل .. أي "حاملة الجرة"، حيث رسم الشاعر بخياله صورة جميلة لحاملة الجرة التي تمشى على استحياء .. إلى النيل لتملأ جرتها من مائه الصافي النمير .. هذه الجرة التي غفل عن ذكرها الشعراء إلا من عهد الشاعر الفرعوني "بنتاءور" .. فلعل سحرها

(١) الديوان، ص ٢٠، ٢١.

(٢) الديوان، ص ٣٢، والمقصود بالغادة العفة .. حاملة الجرة.

يوحى بالمنى والهوى للشاعر المفتون .. وذلك في قوله: [(١)].

سـارت إلـي جـدْولها الـدافقِ ... سـيْر الكـري في مُقْلَـهِ العاشِـقِ
وانيـةَ الخطْـو كـأن الثّـري ... يحمـل منهـا خطْـرَة الـسارِقِ
تمْـتحُ بـالجرَّةِ مـن منهـلِ ... صـافٍ كريـق الكـوثرِ الـدافقِ
ينـسابُ فـوق التبْـر في سُـنْدُسٍ ... نَـضْرٍ ونخْـلٍ مُثْمـرٍ باسَـقَ
إذا دهتْهـا الـريحُ أبـصرْتَها ... حمامَـةً تفـزع مـن باشِـقِ
نـصيفُها تخفُـقُ أهدابُـهُ ... خفْـقَ الأسـي في الـشَّجَنِ الطـارقِ
غريـرةُ اللحْـظِ لهـا نظـرةُ ... زوْراء عـن خَتـل الهـوي الفاسـقِ
كـم ألهمـتْ مـن وحيهـا شـاعراً ... قدَّسـها في عـصرِهِ الـسابقِ
مـن عهـد "بنتـاءور" مـا شـبَّبوا ... يومـاً بـسحر الجـرةِ النـاطقِ
وهـي الـتي تُـوحي المـني .. والهـوي ... للـشاعر المفتـونِ .. والعاشـقِ!

ومن الملاحظ على الأمثلة السابقة أن رؤية الشاعر للطبيعة - من خلال وصفه للريف - تتسم بالوقوف خارجها، والتغني بجمالها في سكون .. ولكن في تصوير حيوي بديع ينم عن عبقرية الشاعر المبكرة في ديوانه الأول أغاني الكوخ .. علما بأن هناك أيضاً بعض القصائد في الطبيعة يقف فيها الشاعر موقف المناجاة لبعض كائنات الطبيعة .. حيث يهمس إليها همس الأليف لأليفه في رقة وتودد، وقد تبقى المسافة بينهما محفوظة، وتتلاشي، ويتم التوحد والاندماج .. بما يتواءم مع الموقف الشعوري ليتحول السياق من مستوى الغيبة إلى مستوى الخطاب .. هذه العلاقة الثنائية بين الشاعر والطبيعة تذوب وتتلاشى المسافات بينهما ليتم نوع من الامتزاج والوحدة بينهما لتبقى ذات واحدة، وصوت واحد .. وهذا ما سيظهر لنا في الطبيعيتين النباتية والحية ومحاورهما.. فالسنبلة في الحقل تغنى، والفراشة "راهبة

(١) الديوان، ص ٤٥ - ٤٧.

الضحى" تتجاوب مع الشاعر إلي الحد الذي سوغ له أن يطلب منها مصاحبته في رحلة خيالية بعيدة عن هذا الكون [١].

٣- الطبيعة النباتية .. ومحاورها

إن الإحساس بهموم الفلاح قد امتد إلى النبات على أشكاله المختلفة، وأنواعه المتعددة في ديوان الشاعر .. الذي صور النبات في أحسن أسلوب وأجمل تعبير؛ ليدل على تفاعل الشاعر مع الطبيعة واقترابه الشديد منها.

وأرى أن الشاعر حينما أراد أن يصور الطبيعة النباتية .. فإنه قد ارتكز علي عدة محاور مهمة .. من أهمها:

أولاً: وصف الزروع

لقد أفرد الشاعر عدة قصائد في وصف الزروع المهمة لدى الفلاح المصري والتي راقت ذوق الشاعر، وكان منها: قصيدة "الذهب الأبيض"، و "سنبلة تغنى"، و "عند زهرة الفول"، و "الناي الأخضر" ويعنى به عود البرسيم .. بالإضافة إلى بعض الأبيات الشعرية الأخرى التي جاءت داخل قصائد الديوان.

ومن أهم تلك الزروع: (القطن) .. وأجمل ما فيه زهراته، و(القمح) حيث سنابله الجميلة، و (الفول) وما يحمل من أزهار بيضاء ناصعة .. إلخ.

ففي قصيدة " كنز الذهب الأبيض" يقول الشاعر واصفاً زهرة القطن: [٢]

فتراهـــا في الرُّبـــي راقـــصةً ... زانَهـــا الـــضوْءُ بزهْـــوٍ والتِمـــاعْ
ذاتَ كـأسٍ أثْرَعتْ شمسُ الضُّحَي ... ريقهـــا مـــن خمـــرة النـــور المـــشاعْ
كلما خفَّـــتْ لهـــا ريـــحُ الصَّبـــا ... أهرقَـــتْ صهباءَها فوقَ البِقـــاعْ

---

(١) انظر: قراءة الشعر وبناء الدلالة، ص ١٢٤، ١٢٥.

(٢) الديوان: ص ٢٤ - ٢٦.

فَجَــرَتْ في كــلِ حــوضٍ جــدْولاً ســارياً حــول الرَّوابــي والْيفــاعْ (*)
يــا عروســاً لم تزِّينْهــا يــدُ غــيرُ كــفِّ المبدعِ الفَــنِّ الــصنَّاع
يــسجدُ الــشاعرُ مــن فتْنَتِــهِ ســجدةَ الفــنِ زهــا حُــسناً وراعْ
وأتاهــا الــصيفُ وهَّــاج الــسنا يــضرِمُ الأنفــاسَ نــاراً في البقــاعْ
فارتــدتْ بُرْنُــسَها مــن ذهــبِ أبــيض تَّــوجَ هامــاتِ الــضِّياعْ
ذاك تاجُ النيلِ فاندُبْ عنده أملَ الفلاَّح والجُهْدَ المُضَاعْ

هذه الأبيات إنما تمثل لقطات من وصف الشاعر لزهرة القطن والذى جاء في اثنين وعشرين بيتاً من سبعة وعشرين بيتا .. عدد أبيات القصيدة. وهذا يشير إلى أهمية زهرة القطن لدى الشاعر والتي إن رآها ترقص في الربي مزدانة بالضياء - وقد أشاعت الشمس خمرها - فإنه لا يتمالك عاطفته ولا يستطيع السيطرة عليها حتى ينتج هذه الأبيات الرائعة.

ومن الملاحظ أيضاً أن الشاعر في تصويره لزهرة القطن قد اكتسب حيوية وذكاء، حيث تدرج موقفة معها وتحول السياق من مستوى الغيبة إلى مستوى الخطاب متمثلاً في أسلوب النداء "يا عروساً" حيث مهد الشاعر إلى مستوى ثالث من مستويات الخطاب الشعري .. يزداد به اقتراباً من زهرته .. فجعلها ذاتاً واحدة تقوم بارتداء برنسها بنفسها.

وفي المعني نفسه، يقول الشاعر في قصيدة "القرية الهاجعة": [1]

وزهــا القطــنُ وارتــدَي حُلَّــةً بيــضاءَ كــالطهرِ في جــبينِ نــبيِّ
نــسجتْها بنانــةُ حيَّــر العقْــلَ مــدي فنِّهــا الخــصيبِ الــسَّري
وارْتَــوي نبْتُهــا مــن العَــرَقِ الهــامي علــي ترْبِــكِ الطَّهــورِ الزكــيَّ
من جباةٍ تعفَّرت في ثِــري الــذّل علـي موْطِــئِ ظلــومٍ قَســيَ

(*) واليفاع: المنخفض أو المرتفع من الأرض.

(١) الديوان ص ٥٦.

وفي قصيدة "المساء" يقول الشاعر: [١]

ويَســـــبَحُ الحقـــــلُ في أثـــــيرٍ مُـــــذهَّبِ الوَشْـــــي والنَّطـــــاقِ
أزاهــــرُ القطـــنِ فيـــه لاحَـــتْ صـــــفراءَ عُذْرِيَّـــــةَ العنـــــاقِ
تـــــصيخُ للجـــــدولِ المغنَّـــــي بمـــــدمَعٍ في الثَّـــــري مُـــــراقِ
وتـــسمعُ النـــوحَ مـــن أســـيرٍ مُقيَّـــــدٍ هـــــامَ بالـــــسَّواقي

ويتضح من الأبيات السابقة أن اللون الأبيض صفة مميزة لزهرة القطن والتي تبدو أحياناً - وقت غروب الشمس - ممتزجة باللون الأصفر الجميل والذي يشبه لون الذهب الخالص .. ولكن المهم أن الشاعر يأتي بخصيصة فنية من خصائص الأسلوب عنده ألا وهى "التجريد" حيث استلهم الشاعر من اللون الأبيض - الذي تتصف به الزهرة - صورة العفاف في الطهر والعذرية .. وهو بذلك ينقلنا من خلال هذا اللون الأبيض من الصورة الحسية إلى الصورة المجردة.

وتلك رؤية جديدة للشاعر أعاد من خلالها المياه للطبيعة في الريف، فنقلنا من خلال التجربة الفنية إلى القرية المصرية .. بالإضافة إلي أن الشاعر يربط بين زهرة القطن وبؤس الفلاح .. ليشير بذلك إلى مدى الظلم الذي يقع على الفلاحين من وراء احتقار الطبقة الثرية للخير الوفير من محصول القطن.

ويأتي وصف الشاعر لسنبلة القمح من واقع أهميتها لدى الإنسان عامة، وللفلاح المصري خاصة؛ حيث يمثل القمح قوت يومه وغده، ولا يستطيع أن يعيش بدونه؛ ولذلك جعل الشاعر للقمح قصيدة بعنوان "سنبلة تغنى" في ديوانه الأول، وقصيدة أخري في ديوانه "هكذا أغني" تحت عنوان "سنبلة تحتضر" وكلتا القصيدتين تحملان معنى واحداً تقري باً.

(١) الديوان، ص ٩٧، ٩٨.

ففي القصيدة الأولى تفخر السنبلة بما لها من ملك عظيم .. فمن النيل تشرب، ومن ثراه تتغذى .. ومن ندى الفجر الغض الرطيب تاجها في مملكتها، وحباتها تشبه الذهب الأصفر الخالص الجميل. وفى ذلك يقول الشاعر: (١)

مـــنْ لـــه في الأرضِ مُلْـــكُ ... مثـــلُ مُلْكـــي في الكثيـــبِ؟
مـــوْردي النيـــلُ وزادي ... مـــن ثـــري النيـــلِ الخـــصيبِ
كلَّـــلَ الفجـــرُ جبـــيني ... بالنَـــدي الغـــضِّ الرطيـــبِ
والأصـــيلُ الـــبر ألقَـــي ... تِبَـــرهُ بـــين جُيـــوبي
وشـــعاعُ الـــشمسِ حيَّـــا ... في شُـــروقٍ وغـــروبِ
لـــورأي الرّهبـــانُ طهـــري ... وصـــلاتي في المغيـــبِ
هجـــروا الـــدَّيرَ وخَّـــروا ... سُـــجَّداً فـــوق كثـــيبي

ولكن هذا الملك لم يدم طويلاً مع مقدم الصيف؛ حيث موسم الحصاد الذي يذوى عودها، ويلف المنجل القاسي بلا رحمة حياتها .. لينتفع الناس جميعاً بعد موتها - كما انتفعوا من قبل في حياتها - برفاتها الذي يمثل قوتهم النافع لحياتهم.

ومن هنا كانت السنبلة مثلاً أعلى ورمزاً خالداً للعطاء والتضحية .. في حياتها ومماتها.

وفي ذلك يقول: (٢)

---

(١) الديوان، ص ٧٣. انظر الديوان أيضاً، ص ٣٢.

(٢) الديوان، ص ٧٥. والمعني نفسه تقريباً في قصيدة "سنبلة تحتضر". انظر الديوان ص ٤٣٤، حيث يقول:

وإلـــي أيـــن سيمـــضي ... نعـــشُ عُـــودِي ويـــسيرُ؟
إن مـــوتي لـــو دَرِي الإنـــسـ ... ـــانُ بعْـــثُ ونِـــشورُ
فاســـألوا المنجـــلَ عنِّـــي ... فهـــو بالـــسّر خـــبيرُ
واسألـــوا النّـــورج ينـــبيـ ... ـــكمْ بحدَّيـــه المصيـــرُ

ودَنـــا الـــصيفُ فـــشابَتْ ... مـــن لظـــاهُ سَـــبَلاتي
وذوي عـــودي ولـــفَّ ... المنجـــلُ القاســـي حيـــاتي
وتحطَّمـــتُ فأحْيـــا ... النـــاسَ عـــيشُ مـــن رفـــاتي
أنـــا في غرْســـي وحـــصْدي ... وحيـــاتي وممـــاتي
مثـــلُ أعلـــي ورمْـــزُ ... خالـــدُ للتـــضحياتِ

ومن المحاصيل النباتية التي ذكر ها في ديوانه أيضاً: (الفول) .. حيث يعد أيضا من المحاصيل المهمة لدي الشعب المصري عامة، ولدى الفلاحين خاصة. أزهاره ذات اللون الأبيض الناصع .. تلتف حولها الطيور لتنهل من ثغرها لتصدر أعذب الألحان. والشاعر لا ييأس من موت زهر الفول - حينما يأتي عليه موسم الحصاد في شهر إبريل - لأن الأمل يتجدد لديه في عودة الحياة لأزهار الفول مرة أخرى ... وتلك عادة بعض الشعراء الرومانسيين الذين يمزجون بين اليأس والأمل. وفى ذلك يقول شاعرنا في قصيدته "تبسمي": (١)

إن مـــاتَ زهـــرُ الفـــولْ ... في مزرعـــات الـــوادْ
ولفَّـــه أبريـــلْ ... في مِنجـــل الحـــصَّادْ
تبـــسَّمي للنيـــلْ ... يزخَـــرُ بـــالأعوادْ
وتُمـــرعُ الحقـــولْ ... بالـــسِّندسِ الميَـــادْ
ويغْتـــدي المقتـــولْ ... مـــن زهرهـــا عبَّـــادْ

وفي قصيدته "عند زهرة الفول" يقول": (٢)

(١) الديوان، ص ٥٩، ٦٠.
(٢) الديوان، ص ٧٨.

وهنـــا الفـــولُ أبـــيضُ الزهرنـــضرُ كـسُدولِ العفـافِ لاحـتْ بمـشْهدْ
وتـري الـصَّادحَ الطـروبَ مـن الطـيرِ ينـــــاغي أليفـــــه المتوَجـــــدْ
يُتظنَّـــي ترتيلـــه في ذرا الـــدَّوح صـــلاةً مـــن الملائـــكِ تُنْـــشَدْ
وكـأنَ الرَّيحـانَ مـن رَوْنـق الخُضْرةِ صـــيغَتْ عيدانُـــهُ مـــن زبرْجَـــدْ

ومن الملاحظ أن الشاعر قد أعد الأبيات السابقة لتكون نموذجاً للإحساس بجمال مشاهدة زهور النباتات المختلفة .. حيث جعل من لونها الأبيض رمزاً للعفة والطهارة والنقاء. بالإضافة إلى أن الشاعر. قد نقلنا أيضاً من الحسي إلى المعنوي .. عن طريق التجريد .. والذي يعد من خصائص الأسلوب عند الشاعر أو كما يقول الدكتور شفيع السيد: "في قصيدة الشاعر (عند زهرة الفول) يزدهي الإحساس بالجمال لمرأى زهور النباتات المختلفة، فيقدم هذا الإحساس في صورة شعرية تعد نموذجاً مبكراً لنزعته في توليد الصورة، ومد أطرافها" (١).

وتجدر الإشارة إلى بعض أنواع أخري من الزروع والتي لم تلق اهتماماً شديداً من الشاعر، وذلك مثل: القثاء، ونورة البطيخ، وعباد الشمس وأعواد البرسيم .. التي جعل منها نايه الذي يطربه بين الحين والحين الآخر.

وذلك في قوله: (٢)

عـــــأنَق (القثّـــــاءُ) في مْيثائـــــه نـــورةَ (البطـــيخ) في لطـــفٍ ولـــينْ
ورنـــــا (العبـــــادُ) حـــــيرانَ إلـــــي مغـــرب الـــشمسِ بـــشوقٍ وحـــنينْ

وقوله في عود البرسيم الأخضر: (٣)

(١) قراءة الشعر وبناء الدلالة، ص ١٢٣.
(٢) الديوان، ص ١٤٨.
(٣) الديوان، ص ١٥٦.

نفخْـــتُ في نايهـــا فطـــرَّبني وراح فـــي عُـــزلتي يـــداعِبُها
يغـــازلُ الـــروحَ مـــن ملاحِنِـــه بخفقَـــة في الـــضحي تُواثِبُهـــا

ثانياً: وصف الأزهار والرياحين

أفرد محمود حسن إسماعيل كثيراً من شعره لوصف الأزهار .. وكانت الأزهار عنده هي الرمز الأتم للجمال .. ومن ثم اختلفت نظرته إليها عن نظرة الكثير من الناس .. فالشاعر له صلاة خاصة عند الأزهار يتملى فيها بالجمال؛ حيث إنه شاعر لديه موهبة البحث عن حقائق الجمال والأمثلة علي ذلك كثيرة، ومنها قوله: (١)

تـــنفَّس سوســـانُها عـــن شَـــذَي كحلْـــم الأزاهـــير ذاك شـــرودْ
يـــضُوعُ لنـــا شِـــقه بالـــشبابِ والأمـــلِ المـــستطابِ الـــسعيدْ
إذا اســـتافهُ العاشـــقُ المـــستهامُ تنـــسَّم ريَّـــاهُ طيـــف العهـــودْ
وينـــشقَهُ الطـــيرُ فـــوث الغـــصون فيسكِبُ في الروض خمرَ القصيدْ

ثم يتابع القول: (٢)

وكـــم ضَـــحِكَ الزهـــرُ لمـــا بكـــتْ وهـــزَّ علـــي الـــدمع رخْـــصَ القـــدودْ
فلمـــا خبـــا دمعُهـــا صـــوَّحَتْ أفانيْنـــه واعـــتراه الركـــودْ
أيحْيـــا علـــي فـــيض أجفانِهـــا ويـــأبي لهـــا الـــصفوَ؟ يـــاللْجحودْ

(١) الديوان، ص ٢٩ والسوسان: الزهر. وذاك: عاطر فاتح.

(٢) الديوان، ص ٣١. والمعني نفسه يتكرر في ص: ٦٣، ثم يتكرر وصفه للزهر، ص ٨٩، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠.

وعن وصف الريحان يقول الشاعر: [١]

وكأن الريحانَ من روّنَقِ الخُضْرةِ صـــيغَتْ عيدانـــُه مـــن زَبرْجَـــدْ
ضـاعَ مـن كُمـه العـبيرُ كعـذراء براهـــا الهـــوي فراحـــتْ تَتهَّـــد
وتخـــالُ الـــضحي عليـــه بُـــرُوداً فُـصِلتْ مـن سـنا شـعاعِ وعـسْجَدْ

ويلاحظ الباحث أن الشاعر قد انتقل بنا في الأبيات السابقة من المعنوي إلي الحسي؛ حيث جعل ضياع العبير كالعذراء التي هزلها الهوي .. وهكذا.

وهناك أيضاً قصيدة "زهرتي" والتي يقول فيها: [٢]

ولـي زهـرةُ طِّيبْـتُ مـن عطْرِهـا دَمـي وضمَّخْتُ رُوْحي من شَذاها وأنفْاسـي
علي شاطئ من فيْضِ روحـي تفتَّحـتْ وراحَتْ تَعب الـريَّ مـن نَبـعِ إحْساسي
مكللـــةً بـــالنورِ تحْـــسَبُ وشْـــيها وميضاً من الصَّهباءِ يُشرِقُ في كاسِ
تميسُ [٣] علـي قلْبي إذا هزَّهـا الهوي فتفْـــضحُ بـــالإدلال ريانَـــةَ الآس

ومن هنا نشعر بمدى الصلة الوثيقة بين الزهرة وروح الشاعر الحزينة؛ فالشاعر قد طيب من شذاها دمه .. لأن الزهرة تفتحت من فيض روح الشاعر .. ومن هنا راحت تعب الري من نبع إحساسه، فكانت مكللة بالنور، تشبه لمعان الخمرة في كاساتها.

ولا شك في أن الزهرة هذه تروح عن الشاعر أحزانه؛ لأن عطرها عطر جنة قد تراءت له .. ومن هنا جاءت صفاتها نموذجية ومثالية في آن واحد .. أي لا توجد هذه الزمرة على أرض الواقع، بل توجد على أرض الخيال، وتلك طبيعة الشعراء الرومانسيين.

---

(١) الديوان، ص ٧٨، ثم يتكرر وصف الشاعر للفل والريحان في ص ٣٩، ص ٨٩.
(٢) الديوان، ص ١٥٧، ١٥٨ وضخمت/ أي أكثرت دهنه منه.
(٣) تميس: تتبختر.

ولا أدل على ذلك من قول محمود حسن إسماعيل: "تغلغلت روحي الشابة في جميع مظاهر الطبيعة وأسرارها، حتى امتزجتْ بها الامتزاج الذي أورثها الحنين الدائب إلى تلك الحياة الهادئة بين الحقول المصرية الممرعة، والقرى الناعمة على ضفتي النيل الزاخر، وخلفت في دمى الشوق الملح إلى الحياة بين رباها وأزهارها، ونحلها وأطيارها، ونخيلها الساهم في سكون القضاء كأنه معاصم نساك تطير الدعوات للسماء .." (١)

ثالثاً: وصف الأشجار والثمار

إذا كان الشاعر قد وصف من الطبيعة بعض زروعها، وبعضاً آخر من أزهارها ورياحينها .. فإنه قد وصف أيضاً بعض الأشجار وثمارها.

وشجرة النخيل من أهم تلك الأشجار التي اهتم بها الشاعر اهتماماً كبيراً، حيث "إنها عند الوجدانيين شجرة رومانسية - إن صح التعبير - يجدون فيها من المعاني المختلفة ما يلائم أحوالهم النفسية وميولهم الفنية، فهي أحياناً رمز للشموخ، وأحياناً للسكينة، وأخري للتفرد والعزلة، وهي توحي بكثير من الصورة الفنية التي يراها الشاعر في وجودها المادى أو فيما ينطبع حولها في وجدان الشاعر من خيالات وأحاسيس" (٢).

ولقد تغنى الشاعر بالنخلة التي أهدته أجعل الثمار، وأروح الظل وقت القيلولة؛ وذلك في قوله: (٣)

ونخلـــةُ فوقـــك تهـــدِي الجنَـــي والظـــلَّ يـــستَذْري بـــه العـــابرُ
تهتَّز للســـاري ونخْـــلُ الـــوري في القصرِ مرهوبُ الحِمَي كاشِـرُ

(١) الديوان: ص ١٧٠.

(٢) د. عبد القادر القط: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، نشر دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١ م، ص ٤٣٥.

(٣) الديوان، ص ٢٠، ويستذري: بمعني يستظل.

وأحياناً أخري .. يري الشاعر في سكون النخلة علامة تشير إلي خشوع الصوفي وزهده؛ وذلك في قوله: [(١)]

لاح فيــه نخليُهــا خــافضَ الــرأْسِ كطيـــفٍ في خـــاطرِ الـــصوفيَّ

وقوله أيضاً: [(٢)]

ونخيــــلُ فـــضحتْ أظلالُــــه في ثنايــا المــاءِ طهــرً الــساجدينْ

وليس هذا غريباً على الشاعر؛ فقد عرف بهذا اللون من التصوير المتصل بالمعاني الدينية .. والصوفية منها على وجه الخصوص.

ومن الملاحظ على الصور البيانية السابقة أن التشبيهات قد تميزت بالجدة والطرافة، وعمق الثقافة العربية التي جمعت بين الأصالة والمعاصرة، وخلقت منه ملكة النقد في الوقت نفسه.

وتجدر الإشارة إلى بعض أنواع الأشجار الأخرى - على الرغم من أنها قليلة الذكر في الديوان - مثل شجر السدر وشجر الدوْم .. حيث وصفهما معاً في قصيدة "القرية الهاجعة": [(٣)]

وصَغي السَّدْرُ للسكون كرُهبانِ أصــاخوا في معْبَــدٍ قُدْسِــي
لفَّعتـه الأنـوارُ مـن بْردِهـا الـسامي بثــوب مــن الــسَّنا موْشــيَّ
ورنــا الــدَّوْمُ للــشعاع كملــهوفِ صـــبا إلـــي نهْـــرِه الفـــضيِّ
فاسـتطالتْ سيقانُه تطلب النجـوَي وتهفـــو إلـــي الــوميضِ القــصيِّ
كعذاري سَبَحْنَ في لُجِّة النـــور هُيامـــاً بفيضِـــه اللّجـــيَّ

---

(١) الديوان، ص ٥٢.

(٢) الديوان، ص ١٤٤.

(٣) الديوان، ص ٥٢، ٥٣.

ولقد برع الشاعر في قدرته علي التصوير، والجمع بين الحسي والمعنوي أو بين المعنوي وحسي؛ وذلك من خلال استعانته بقدرته اللغوية، وبراعته في صنع الدلالات اللغوية الجديدة .. "وأنه يملك في النهاية عبقرية خاصة لا نستطيع تحديدها بشكل صارم يمكن أن نطلق عليها في النهاية عبقرية التشكيل بالكلمة ويمكن أن نسميها عبقرية البناء بالصورة .. ويمكن أن نسميها حضور الشخصية الفنية .. ويمكن أن تكون مزاجاً من كل هذه الخصائص التي تؤكد موهبته الفنية وتدعم طاقته الشعرية" (١)

٤- الطبيعة الحية .. ومحاورها

تغلغلت مظاهر تلك الطبيعة الحية في الديوان .. فمنها ما جاء منبثا في ثنايا الأشعار - وهذا كثير - ومنها ما جاء في قصائد مستمرة خصصها شاعرنا لوصف محور بعينه من محاورها (٢). ويري البحث أنها تتلخص في:

أ - وصف الحيوان.

ب- وصف الطير.

ج- وصف الحشرات والزواحف.

أولا: وصف الحيوان

إن إحساس الشاعرالمأسوى تجاه الفلاح هو نفسه نحو أهم حيوان يعتمد عليه الفلاح في أعمال الحرث والري والشئون الزراعية الأخرى، وهو "الثور" الذي يمثل المعادل الموضوعي للفلاح في معظم قصائد الشاعر.

ولذلك فليس غريباً على الشاعر أن يلقب ثوره بعاهل الريف الذي يعيش في وطنه عيش الذل والانكسار؛ حيث إنه مكبل بالقيود دائماً، ولا يستطيع

---

(١) محمود حسن إسماعيل - مدخل إلي عالمه الشعري - ص ٧.

(٢) انظر الديوان: قصيدة (البومة والملحد)، وقصيدة (ثورة الضفادع) وقصيدة (راهبة الضحى).

الحركة والانطلاق، وأنه يضرب على جسده بسوط شديد لا يملك له دفعاً .. بل يتألم أشد الألم لما يلاقيه من ظلم وعسف علي مر الزمان [١].

ولقد لخص الشاعر رؤيته للثور في قوله: "ويرى الشاعر في ذلك الثور المستعبد الذي يلهبه الفلاح بسوطه حتى يمسه اللغوب وهو صادح خلفه بأغانيه الوديعة، معنى خفياً ترمز به الطبيعة إلى قوة القدر التي تسخر الإنسان وتسوقه إلى المخابئ البعيدة عن إدراكه وحسبانه" [٢].

ولقد تعددت صفات الثور في شعر محمود حسن إسماعيل، فمرة كان ثوراً، ومرة ثانية كان راسفاً، ومرة ثالثة كان مستعبداً أسير السوط .. وهكذا.

ففي المرة الأولى يقول الشاعر: [٣]

ونَّدابـــةٍ تحـــت ظـــلِّ الكـــروم ... علـي الثـوْرِ يـشكو إسـارَ القيـودْ
تـــضِجُّ علـــي دائـــرِ كـــالرحي ... يـــذوقُ مـــن الـــسوْط ذُلَّ العبيـــدْ
مـــضيَّعةَ النـــوْح كـــم أرســـلتْ ... شـــجاها يـــئن أنـــينَ الـــشَّريدْ

وفي المرة الثانية، يقول الشاعر: [٤]

دّؤوبـــةُ الـــشكوي علـــي راســـفٍ ... في الـــذُل مفجـــوعُ علـــي جَـــدِّهِ
دارتْ بـــه البلـــوي فمـــا راعَـــهُ ... إلا عمـــاءُ غـــال مـــنُ رُشْـــدِهِ
أعمـــي رمـــاه الـــبينُ في دارة ... لم يـدْرِ نحـسَ الخطْـو ومـن سـعدِهِ
شُـــدَّتْ حبـــالُ الـــذّل في رأسِـــه ... وفـتَّ صـرْفُ الـدهْرِ في كبْـدِهِ
مَنـــادِحُ الـــضجَّةِ في أذنِـــه ... وملْعـــبُ الـــسّوطِ علـــى جلْـــدِهِ

---

(١) انظر: ديوان هكذا أغني، المجلد الأول، ص ٤٠٣ - ٤٠٨.
(٢) الديوان، ص ١٧٥.
(٣) الديوان، ص ٣١.
(٤) الديوان، ص ٦٣، ٦٤.

والــــــسائقُ الأبلــــــهُ لا ينــــــثني عــن ضــرْبِه العــاتي وعــن كيــدِهِ
يتلـــــو علـــــي آذانــــــه سُـــــورةً مــن قــسوة الــسَّيِّدِ علــي عبــدِهِ
كـأنَّـــهُ الـــدهرُ يزُجِّـــي الـــوري قــسراً إلــي مــا نــدَّ عــن وجْــدِهِ

وفي المرة الثالثة، يقول أيضاً: [1]

وكـــــمْ نـــــاعورةٍ ناحـــــتْ علـــــي مَـــــستعْبدٍ فيهـــــا
أســـير الـــسوْط كـــم ضـــجَّتْ لــــــه يومـــــاً أغانيهـــــا

ومن الملاحظ علي الأبيات السابقة أن الشاعر يعشق الحرية ويؤمن بها، ويطلبها لجميع أفراد مجتمعة. فالحرمان منها يعادل فقد الإنسان لحياته.

بالإضافة إلى أن تناول الشاعر للثور كان تناولاً رمزياً، فكلما ذكر لنا الثور ومعاناته تمثل أمامنا الفلاح وما يكابده في قريته، فكلاهما يعمل ولا ينتظر الأجر، بل أجرهما الذل والهوان.

ولعل ارتباط الساقية بالثور هو ارتباط السبب بالمسبب، فالبكاء لا يكون إلا علي الظلم الذي وقع على ذلك الثور، أو الفلاح وما كان يحدث له في تلك الفترة من نظام الإقطاع وكبار الملاك، فلا يجني الفلاح غير التعب والمرض، والفقر والجوع، وفضلة على الأرض لا يقره أحد [2].

وتجدر الإشارة أيضا إلى ظاهرة "التشخيص" التي تجلت بوضوح في تصوير الشاعر للثور؛ حيث مزج الشاعر في الأبيات السابقة بين عاطفته وفكره وخياله، ليتفاعل مع الثور، ويجعل ما حوله أشخاصاً تشاركه محنته وقدره في الحياة.

---

(١) الديوان، ص ١٠٨، ١٠٩. والمعني أيضاً يتكرر في ص ٧٨، ٧٩.

(٢) انظر: في الشعر العربي الحديث، ص ٩٦.

ولقد ذكر الشاعر أنواعاً أخرى من الحيوانات تقل أهمية عن الثور، مثل الكلب، وذلك في قوله: [١]

يغْفونَ والكلبُ على مهْدهمْ سهرانُ لا يُغْفِي له ناظرُ
يَصرُخ إنْ أغرتْهُ أطيافُه أو راعه بالسَّطْوةِ الخاطرُ

وعن الجدي والذئب، قال: [٢]

ولا الرُّعاة إذا غنَّوْا لسرْبهمُ مُروَّحين بإنشادٍ وتطريب
يُغريهمُ لرقيق الشدْو ذو طربِ من الجِداء ولوعُ بالألاعيبِ
طويَ المروجَ طليقاً في مخاضِرها وعاد مبتهجاً من غفلةِ الذيبِ

وهناك الضفادع التي هي من أصغر عناصر الطبيعة يجني منها الشاعر غراس الحكمة العلياء ويستخرج منها فلسفة التأمل في الحياة والتي لا يصل إليها إلا شاعر عميق الحس والفكر.

ومن ها تعجَّب الشاعر لصرخات الضفادع التي هتكت ستر السكون، والنقيق الذي أزعجت ضوضاؤه أذن الكون وسمع النائمين !! صرخات لا يفهمها الشاعر كما لا يستطيع فهم أشياء كثيرة في هذا الوجود، فلماذا تترك الضفادع الرياض الغناء وتسكن الطين.

ومن ذلك، قول الشاعر في قصيدة "ثورة الضفادع": [٣]

فغدَتْ تصْرخُ في جوْفِ الدَّجي صرخاتٍ هتكتْ ستْر السكونْ
خلتُها والليل أعشَى هابطٌ بصداها غى غيابات الظنونْ

---

(١) الديوان، ص ١٧.
(٢) الديوان، ص ١١٩، ١٢٠.
(٣) الديوان، ص ١٤٤، ١٤٥.

أُرغُــنَ الــشيطانِ يــشدو ملقيــاً ثــورةَ الأنغــامِ في وادي المنــونْ
يــا بنــةَ الطــينِ لقــد مــلَّ الــدُجَي لَغَطــاً مــن فيــك مجهــولَ الــرنينْ
ونقيقــاً أزعجــتْ ضوضــاؤهُ أذُنَ الكــونِ وسمْــعَ النــائمينْ
أعجميًّــاً حيَّــرتْ لُكْنَتُــهُ شــاعَر الفَــصْحَي بلحــنِ لا يــبينْ

ثم تغلب الحيرة علي الشاعر فيكرر الاستفهام أربع مرات، مما يؤكد سيطرة القلق والاضطراب علي عاطفته. كعادة شعراء مدرسة أبولو.

وذلك في قوله: (١)

أيُّ معــني في صــداها كــامنُ طيَّــرتْ حكمتُــه العقــلَ الــزرينْ؟
لمُ تغْفَــي والــدنا في صــحْوةٍ؟ ثــم تــصحو وبنوهــا هامــدونْ؟
لم أفــني النــوْر مــن أعيُنَهــا صــولةَ النــورَ؟ ورَّدتْهــا الــدجونْ؟
سَــكنتْ أغْبَــرَ مهجــوَر الحمــي مُكفهر اللَّمْحِ كالطيفِ الحزينْ
ولــديها كــلُّ روضٍ مُونِــقٍ ريِّــقِ الأنــداءِ ضــحَّاكِ الجــبينْ
أي شــرَّ في البلــي هامــتْ بــه غــاب في طيَّاتــه لا يــستبينْ

ثانيا: وصف الطير

لقد اعتنى محمود حسن إسماعيل عناية فائقة بوصف أنواع كثيرة من الطيور في ديوانه، وأن معظمها من الطيور المصرية التي شاهدها في قريته على عكس معظم شعراء أبولو الذين وصفوا الطيور المصرية والغير مصرية عن طريق الشعر المترجم أو عن طريق البعثات الخارجية .. أو غيرها.

ومن الملاحظ على وصف الشاعر للطير أنه انصهر بعاطفته معها، فوصفها وصفا ظاهريا محسوساً؛ لتصبح جزءاً لا يتجزأ، إذا فرح الطير فرح الشاعر، وإذا

(١) الديوان، ١٤٥، ١٤٦.

ناح معها. وجعل الطيور تتحدث بلسانه، وتعبر عما يجول بخاطره.

ومن الطيور التي ذكرها شاعرنا في الديوان: العصافير، والحمام، والنحل، والبلابل، والغربان، والديكة، والبوم، والقبّرات.

ومن أمثلة ذلك، قوله في عذوبة لحن غناء العصافير: (١)

وكم شدا العصفوُر لمَّا سرتْ ... تختالُ تحتَ الفَنَنِ الوارقِ

وقوله في قصيدة "تبسمي": (٢)

إن ماتَ في الهجير ... لحْنُ على العيدان
غنَّي به العُصفورْ ... في فجْره الرّيانْ
تبسَّمي للحورْ ... يهتزَّ كالسَّكرانْ

وقوله في موضعين من قصيدة "من فم الراعي": الأول بدأ به القصيدة؛ وذلك في قوله: (٣)

شَجَتني رنَّةُ العُصفور ... في فجْرِ الرّبي الصَّاحِي

والموضع الثاني في قوله:

لنا العطرُ إذا فاحتْ ... بوادينا الأزاهيرُ
وعذبُ اللحْنِ إن غنّتْ ... علي الأيْكِ العصافيرُ

والبلابل من الطيور الجميلة أيضاً التي يهتز لها الشاعر، لكنها تثير عواطفه،

(١) الديوان، ص ٤٧.
(٢) الديوان، ص ٥٩.
(٣) الديوان، ص ١٠٧، والموضع الثاني، ص ١٠٨.

وتجدد آلامه. وهذا ما سنراه في قوله: [١]

فـــشدا في رُبـــاكِ بلْبُـــلُ أيـــك ... هيَّجتـــــهُ خـــــواطرُ بالعـــــشى
صـــرخَ البـــؤس في أغانيـــه لهفـــانَ ... علـــي فرْعـــه الرطيـــبِ الجـــنيّ
نـــاحَ في جنّـــةٍ تلقـــنُ شـــاديها ... نـــشيدَ الهنـــاءةِ الـــسحْري

وقوله أيضاً: [٢]

لقـــد نـــادمَ البلبـــلُ المـــستهامُ ... ورودَكِ بـــــالغُنْوةِ الداميـــــةْ

وأحياناً يقف البلبل وقفة المعجب بنفسه فوق غصن غض جميل، يصدر من فوقه أجمل الألحان؛ وهذا في قوله: [٣]

والعاشـــقُ البلبـــلُ في عُـــشِّهِ ... أســـرفَ في نجـــوي معاميـــدهِ
يختـــالُ فـــوق الغـــصنِ مـــستلهماً ... وحْـــيَ الهـــوي مـــن روحِ معبـــودِهِ
أقـــام للبـــستانِ عيـــدَ الهـــوي ... فـــراح يلـــهو الـــروض في عيـــدِهِ
لـــم يسمـــع النّـــوْحَ لمخنوقَـــةِ ... تشكو إلي الدهـــرِ أسَـــي قيْـــدِهِ

ولعل صورة البلبل في عشه إنما تحمل دلالة رمزية تشير إلى (الباشا) في قصره، حيث لم يستمع إلى أنين المتوجعين، ولا إلى أسى المكروبين، وذلك في إطار القصيدة التي عنون لها بالقيثارة الحزينة (الساقية) .. وتلك سمة من سمات شعراء أبولو في وصف الطير، "فلم يصف شعراء أبولو هذه الطيور وصفا ظاهرياً وحسب، وإنما مزجوها بنفوسهم حتى غدوا جزءاً منها لا يتجزأ أو غدت هي جزءاً منهم لا ينفصل، وأحياناً يجعلون الطيور تتحدث بألسنتهم، وتعبر عما يجيش بصدورهم، وأحياناً أخرى يجعلون أنفسهم طيوراً، وقد حملوها رموزاً متعددة، في

(١) الديوان، ٥٦.
(٢) الديوان، ص ١٦٢.
(٣) الديوان، ص ٦١.

أثناء تحويمهم بين أسرابها" [١]

وبعد صورة العصفور والبلبل تأتي في المقابل صورة الغراب والبومة والقبرة؛ وذلك في قوله عن الغراب الأسود: [٢]

وكم شدا العصفوُر لمَّا سَرَتْ تختالُ تحتَ الفَنَنِ الوارقِ
وشاعرُ العصرِ سباه الهوي فناح نوْح الأسودِ الناعقِ

وقوله في البومة: [٣]

ولا صدى بومةٍ هتَّافةٍ نَعَبَتْ فلو تدعْ في الدجى شجواً لمكروبِ
ولا الظلامُ سرتْ في الكونِ وحشتُهُ بهاجسٍ حالكِ الأطيافِ غريبِ
يذيعُ في النفسِ أصداءْ مُروَّعةً من عالمٍ لسحيقِ الوهمِ منسوبِ

وعن القبَّرة، يقول الشاعر علي لسان سنبلة القمح: [٤]

قُبَّراتَ الحقلِ لمَّا خشيتْ لفحَ الهجر
رشفتْ ظَلّي خيالاً نغَّنتْه في الصفيرِ

أما الديك فله ذكر أيضاً في الديوان؛ وذلك في قوله من قصيدة الكوخ: [٥]

يُلقي عليه الديكُ أرجوزةً غنَّي بها إصباحُه السافرُ
كأنَّه ينعَي مماتَ الدَّجي ونعشُهُ فوق الربَي سائرُ
أو أنه يشدو لعَرس السَّما ونورُها ضافي السَّنا طافرُ
أو أنه يُسمعُ ركبَ الملاَ كذاَ يديلُ الأولَ الآخرُ

(١) في الشعر العربي الحديث، ص ١٠١.
(٢) الديوان، ص ٤٧. انظر أيضاً ص ٨٦.
(٣) الديوان، ص ١٢٠.
(٤) الديوان، ص ٧٤.
(٥) الديوان، ص ١٨، ١٩.

وأما الحمام فذكره في الديوان ضعيف جداً؛ ومنه قوله: [١]

ويـــشتكي بلـــواهُ رأْدَ الـــضحَي حمامُـــه المـــسترحِمُ الـــذاكرْ

وقوله من قصيدة "حاملة الجرة": [٢]

إذا دهتْهـــا الـــرِّيحُ أبـــصرْتَها حمامـــةً تفـــزَعُ مـــن باشَـــقَ

وأحياناً يأتي الشاعر بلفظة "الطير" ليشير بها إلى أنواع أخري من الطيور غير التي ذكرناها، ومن ذلك قوله: [٣]

وينـــشَقُه الطـــيرُ فـــوق الغـــصونِ فيُسْكَبُ في الروضِ خمرَ القصيدْ

يُغَنـــــى فتحـــــسبَ ألحانَـــــهُ مـــن الوجـــدِ أنغـــامُ شـــاكٍ عميـــدْ

ومن هنا تتضح صورة الطير كما رسمها الشاعر في ديوانه ولكن تبقى هناك **بعض الملاحظات تتلخص فيما يلي:**

أ- وضوح الأثر الغربي الرومانسي في صورة الطير لدى الشاعر .. فعصفور محمود حسن إسماعيل يشبه عصفور "ورد سورسث" وقبَّرة شاعرنا تشبه قبرة "شيلى" ومما يؤيد ذلك أن الشاعر قد أعجب بمنافسة (ليهنث) و (كيتس) و (شيلي) وهم من شعراء الأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر في نظم أغنية عن النيل [٤].

ب- إن الشاعر قد جعل من بعض الطيور رمزاً يشير به إلى دلالات تتناسب مع

---

(١) الديوان، ص ١٦.

(٢) الديوان، ص ٤٦.

(٣) الديوان، ص ٢٩. وأيضاً: ص ٥٩، ٦١، ٨٩، ١٣٠ من الديوان نفسه.

(٤) انظر الديوان، ص ١٨١.

الموقف الشعوري الذي يحمله الشاعر ووقف منها موقف المناجاة، يهمس إليها همس الأليف لأليفه ليتم التوحد والاندماج بينهما.

ج - لقد أكد الشاعر على ظاهرة التشخيص في وصف بعض الطيور، ووقف منها موقف المناجاة.. يهمس إليها همس الأليف لأليفه ليتم التوحد والاندماج بينهما.

ثالثا: وصف الحشرات والزواحف

إن من الحشرات التي ذكرها الشاعر في الديوان واهتم بها: الفراشة، والنحلة، وعش الهوام والعناكب، والجنادب، .. ومن الزواحف: الدود في قصيدته "النعش".

فالفراشة لها صورتان عند الشاعر: الأولى وهى في صورة العروس التي تزف لزاهي الورود، فالسعادة تغمرها من كل جانب من فردوسها المهجور .. ريف النيل؛ وذلك في قوله: (١)

تـــرفَّ الفراشـــةُ في حوضِـــهِ رفيـفَ المنــى في مَجَــالي الــسُّعُودْ
تُحَّـــومُ في موكـــبٍ زاخـــرِ مــن الـضوءِ غـشَّى عليــه الهمــودْ
تراهـــا وقـــد كُلِّـــتْ بالـــضياءِ عروســـاً تُـــزفُّ لزاهـــي الـــورودْ

والصورة الثانية جعلها في قصيدة كاملة في ستة وأربعين بيتاً، وكانت تحت عنوان "راهبة الضحي" والتي جعل منها صديقة له في رحلة خيالية بعيدة عن هذا الوجود الذي ضاق منه الشاعر، وأصبح لا يحتمل فيه شجونه .. إلي عالم المثل، حيث السعادة الأبدية التي ليس فيها أدمع حارقة، ولا مهج شاكية، ومن أجل أن ينسيا - في هذا العالم الخيالي - الدنيا وجرائمها وآلامها المرة الشديدة على نفسيهما. وذلك في قوله: (٢)

---

(١) الديوان، ص ٣٠، ٣١.

(٢) الديوان، ص ١٦٢ - ١٦٤.

تعـــاليْ نطِـــرْ في سمـــاءِ الخيـــالِ ونهـــــفُ بجنَّتِـــــهِ النائيـــــةْ
بعيـداً عـن الكـونِ حيـث المنـى تـــــرفَ بأظلالِـــــه هانيـــــهْ
وحيـــثُ الـــشَّذا مـــن أزاهـــيرِه أفـــاويح مـــن حُلُـــم طافيَـــهُ
تـــروحُ عنـــا شـــجوَن الحيـــاة وتُطفـــى لظـــى الكبـــد الواريَـــهْ
هنالـــــك لا أدمـــــعُ ثَـــــرَّةُ تهـــاوى ولا مهجـــةُ شـــاكيَهْ
ولا عـــاَلمْ بـــالأذى صـــاخِبُ ودنْيـــا بأشـــباحها زاريَـــةْ
فيهَّـــا نهلّـــلُ في ظلّهـــا فتطفُـــو بغُـــدرانها الجاريَـــةْ
ونـــسبحُ في جَّوهـــا كالخيـــالِ يرفـــرفُ في مُهْجـــةٍ غافيَـــهْ
ونَنْـــسَى الـــدُّنا وأهاويلَهـــا وآلامهـــا المـــُرةَ العاتيَـــهْ

وهذه الصورة التي رسمها شاعرنا للفراشة إنما تشبه تماماً الصورة التي رسمها الرومانتيكيون لعناصر الطبيعة: "فالشاعر عند الرومانتيكيين يستعين على جلاء الصور في الشعر بالطبيعة ومناظرها، على أن يراعى صنوف التشابه التي تربط ما بين صور الطبيعة وجوهر الأفكار والمشاعر، بحيث لا يقف هذا التشابه عند حدود المظاهر الحسية . وفى هذا رجوع إلى محاكاة الطبيعة في إخراج الأفكار الذاتية صوراً طبيعية، ولكن على أن يحتفظ الفنان أو الشاعر بأصالته في البحث عن الصور الطبيعية التي تمثل أفكاره، وتربط ما بينها عضوياً حول موضوع واحد" [١].

أما صورة النحل فقد جاءت في أبيات قليلة: لتشارك في وصف لوحة من لوحات الطبيعة .. وأحسن ما في النحل - عند الشاعر - صوته الذي يتجاوب الفلاح معه في حقله أثناء عمله؛ وفى ذلك يقول الشاعر: [٢]

(١) د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، نشر نهضة مصر، د.ت، ص ٣٩٢.
(٢) الديوان، ص ٣٠.

ويخلو مع النَّحْلِ في ربوةٍ منغَّمةِ الصمتِ من غير عُودْ

وعن صوت الساقية أيضا الذي يشبه طنين النحل، يقول الشاعر: (١)

لها طنينُ النحلِ في قفْرةٍ يهماءَ لم تُبْق على شَهْدِهِ

وسنبلة القمح هنا تستمتع بصوت النحل وهى نائمة بحضن الربوات الجميلة، في وقت ممتع من أوقات الربيع؛ وذلك في قوله: (٢)

كم ربيعٍ ناعمِ الآ صالِ طلْق الغَداوات
نمْتُ فيه عفَّة المهدِ بحِضْنِ الرَّبوَات
بين ترتيل السَّواقي وزفيفِ النَّحَلاتِ

وأما عن عش الهوام، والعناكب، والجنادب، فيقول الشاعر في قصيدة "أحزان الغروب" واصفاً الحالة التي عليها الفلاح المصري وقتئذ: (٣)

طعامُه لقمة عفراءُ يابسة والماءُ من أكْدرٍ في النَزّ مرْبوبِ
ومهدُهُ لا تَسَلْ إن لفَّهُ وَسَنُ عُش الهوامِ وأبياتُ العناكيبِ
ولا الجنادبُ (٤) ألفتْ في مسامِعِه مناحةَ الصَّرِّ من جوْف النّخاريبِ(٥)

ومن الزواحف "الدود" الذي يأتي ذكره عابراً في قصيدته "النعش" علماً بأن

---

(١) الديوان، ص ٦٢.

(٢) الديوان، ص ٧٥. انظر أيضاً، ص ١٥٥، ص ١٦٥. عن عزوبة صورة النحل.

(٣) الديوان، ص ١١٩، ١٢٠.

(٤) الجنادب: ضرب من الحشرات يألف الظلام.

(٥) النخاريب: جمع نخروب وهو الشق في الحائط أو غيره (النخر بالعامية).

في ديوانه "هكذا أغني" "قصيدة بعنوان" هكذا قالت دودة القز "في ثلاثة عشر بيتاً .. وفي ديوانه "نهر الحقيقة" قصيدة أخري بعنوان "الوهج والديدان" [١].

وعن الإنسان العابر الذي هبط الدنيا، وظن أنه مخلد فيها .. يذكِّرُه الشاعر بأن الدود سيكون معه في القبر قائلا له: [٢]

يا عابراً هبطَ الدنيا فظنَّ بها ... مراتعَ الخلْدِ لا تُحْصى بمقدارِ
وكم تزهَّدَ لا تنفكَّ سُبْحَتُه ... مجنونةَ التوْبِ من إثمٍ وأوزارِ
حتى ثوى في حفيرٍ ... ويلاهَ من ظلُماتِهْ
يلهو مع الدُّود فيه ... لهوَ البلى في رفاتِهْ

وهكذا وصف الشاعر محمود حسن إسماعيل طبيعته الحية، حيث الحيوان والطير والحشرات. وامتزج بها امتزاجاً يؤكد على معايشة الشاعر لعناصر الطبيعة المختلفة، "أو كأن الشاعر يبدو ذائباً في ذلك الكائن الحي، في دمه وأعصابه وروحه .. على أنها روح طاهرة سامية تستحق أن يلجأ إليها الشاعر، مبتعداً عن عالم الإنسان، حيث لم ير فيه الشاعر إلا الجحود والإنكار والظلم والاضطهاد واليأس من الإصلاح" [٣].

٥- الطبيعة العلوية .. ومحاورها

ونقصد بالطبيعة العلوية كل ما استقر في السماء، كالأجرام السماوية أو شغل الفراغ بين السماء والأرض، والظواهر الكونية التي تنتشر في الفضاء الجوى، كالنور والظلام والليل والصباح ولحظة الغروب والمساء، والفصول

(١) انظر الأعمال الكاملة للشاعر: المجلد الأول، ص ٤٣٧، والمجلد الرابع، ص ١٨٣٣.
(٢) الديوان: ص ٨٧، ٨٨ مع العلم بأن قصيدة "النعش" ليست من قصائد الطبيعة.
(٣) في الشعر العربي الحديث، ص ١١٣.

الأربعة: الربيع والصيف والخريف والشتاء [١].

ولقد اتفقت مظاهر الطبيعة العلوية ونفس محمود حسن إسماعيل التي تعانى مرارة الواقع الاجتماعي، وتنتظر الأمل السعيد مع مقدم الفجر الجديد، أو فصل الربيع الذي يعيد للحياة مجدها وعزتها بعد انحطاط كرامتها وذلها.

ومن هنا راح الشاعر لينشد عالمه الخيالي المقدس، فرمز له بالفجر والصبح والنور والضياء، لعله يصل في يوم من الأيام إلى عالمه الأبدي الطاهر الذي يتمنى أن يعيش فيه؛ ليبتعد عن هموم الواقع المادي البغيض إلى نفسه.

ويمكننا تقسيم الطبيعة العلوية - من واقع ديوانه - إلى ثلاثة محاور، أهمها:

أ- أجرام سماوية.

ب- ظواهر كونية.

ج- فصول السنة.

أولاً: الأجرام السماوية

ومن أهمها: الشمس، والقمر، والنجوم. أما الشمس فقد احتلت مكانة عظيمة في ديوان الشاعر وجاء ذكرها في أربعة عشر موضعاً تقريباً. وصف خلالها قوة ضوئها وقت الضحى والظهيرة، وضعف شعاعها وقت غروبها .. وما أجمل أن يجمع الشاعر بين وصفين جميلين: بين حاملة الجرة وهى تعود قبيل الغروب - وقد حملت جرتها على رأسها - إلى كوخها .. والشمس وهى مؤججة القرص تودع النيل وداع الحبيب لحبيبه؛ وذلك في قوله: [٢]

---

(١) من الملاحظ وجود قصائد تحت عنوان: "در ودمع .. الزهرة بين الشتاء والربيع"، "المساء، أحزان الغروب"، "شاعر الفجر"، "راهبة الضحى" مما يؤكد لنا أن الشاعر قد أستلهم عناصر الطبيعة العلوية في الديوان.

(٢) الديوان، ص ٣٢، ٣٣.

تعــود إلى كوْخِهــا في الغــروبِ — وقد حاكتْ الشمسُ قلبَ الحسودْ
مؤجَّجـــةُ القـــرصِ ملهوفـــةُ — علــى النيــل ترجــو لــه أن تعــودْ
فتلْهمْـــــهُ العهَـــــد في قبْلـــــةٍ — مـن الـشوْق تـذكو كنـارِ الوقـودْ
وتـــسبحُ في لجّـــةٍ مـــن دمٍ — علــى أفقِهــا مــن غــرام شــديدْ

ويربط الشاعر - أيضاً - في الأبيات التالية بين جمال الشمس واحمرارها وجمال الفتاة التي تعانى مرارة العشق؛ وذلك في قوله: (١)

ووجنـــةُ الـــشمسِ حـــين تبـــدو — بـــشاطِئِ الأُفْـــقِ في احْـــتراقِ
كأنهـــا كاعـــبُ تُعـــانى — مـــرارةَ العـــشْقِ في الفِـــراقِ

أما القمر فهو عند شعراء أبولو "رمز العشق أو هو العشق ذاته، وهو الساهر مع العاشقين، أو هو عاشق بينهم. فغالباً ما كان حديثهم عن القمر عن طريق تشخيصه وإضفاء المشاعر والأحاسيس عليه، وكانوا يسمعون دقات قلوبهم من خلال "القمر" وإذا يئسوا من عالمهم المادي ناجوا القمر علواً وسمواً وامتزاجاً وتوحداً" (٢). وعلى الرغم من ذلك لم يحظ القمر باهتمام الشاعر اهتماماً كبيراً إلا في قصيدته (القرية الهاجعة .. في ظل القمر" والتي منها: (٣)

لمعــاتُ مــن وَجْنــةِ القمــرِ الزّاهــى — وفــيضَ مــن ثغــرهِ العْــسجدىْ
غرقَــتْ في جلالِــه الــروح سَــكْرى — مــن طِــلا جامِــهِ الوضــيْءِ الــسَّنِيَّ
تنهــلُ الحلْــمَ مــنُ رؤى تتجلَّــى — هامــساتِ بكــلِ معنــى خفــيَّ
رائعاتِ الأطيافِ لماحــةَ الومْــضِ — تهــــادَي علي مهــــادٍ رضِــيَّ

(١) الديوان، ص ٩٧. انظر أيضاً، ص ٢٥، ٤٥، ٤٦، ٧٣، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١٧، ١٢١، ١٤٨، ١٥١، ١٦٦.
(٢) في الشعر العربي الحديث، ص ٥٨.
(٣) الديوان، ص ٥١، ٥٢.

ثم يواصل حديثه عن جمال القرية وهدوئها تحت أشعة بدر جميلة تشبه أوتار العود في رقتها ونعومتها، مما يجعلها ساحرة للعقول؛ وذلك في قوله: (١)

شـــاعرً هـــزَّةُ هـــواكِ فغنَّـــي ... لـــكِ أنـــشودةَ الجمـــالِ البهـــيَّ
مـــدَّ أوتـــارَه أشـــعَّةَ بـــدْرٍ ... غارقـــاتٍ في صـــمتِكِ الـــسّرْمديّ
ســـاحراتِ النُّهـــي برْعـــشَةِ أطيـــا ... فٍ تراقـــصْن في الفـــضاءِ الوَضـــيَّ
ذاهـــلاتٍ كأنهـــا حُلْـــمُ صـــبَّ ... تـــاه في ســـكْرةِ الهـــوي العُـــذْريَّ

ولم يكتف بوصف القمر أو البدر عند هذا الحد، بل راح الشاعر - في آخر القصيدة - يشبه البدر الذي انتشى بخمر الليل بالعانس التي تطل على النيل من طرف خفي يملؤه العفاف والوقار؛ وذلك في قوله: (٢)

ســحَرَ الليـلَ عزفُـه وانتـشى البـدرُ ... بـــصهباءِ لحْنِـــه الرَّوحـــيَّ
فبـدا عانـساً تطـلُّ علـى النيـل ... بطـــرْفِ مـــن العفـــاف حَيـــيَّ
خـــدَّرَ اللحـــنُ روحَهـــا فترامـــتْ ... فـــوق مهْـــدِ مُكَوْكَـــبٍ شَـــفقيَّ

وعن النجوم التي تشبه حبات السبحة المضيئة؛ يقول الشاعر: (٣)

تلـــك النجـــومُ الغُـــرُّ لـــمَّا رنـــا ... وطيَّـــر النجَـــوى لهـــا نَغْمَـــةً
حبَّـــاتُ نـــورٍ ضـــافياتُ الـــسَّنا ... جوْهَرهـــا اللّهُ لـــه سُـــبْحَةً

(١) القصيدة نفسها، ص ٥٣، ٥٤.
(٢) الديوان، ص ٥٨.
(٣) الديوان، ص ١٢٩.

ثانياً: الظواهر الكونية

لقد رأى محمود حسن إسماعيل في أيامه ولياليه، بين ظلمات الليالي وأنوار الصباح، وبين النهار والليل، والفجر والمساء وعاء لأحاسيسه وتسلية لهمومه، وخلاصاً من أعبائه النفسية.

وللظواهر الكونية عدة محاور - من خلال ديوان الشاعر - وكان منها:

١- النور والضوء. ٢- الظلام. ٣- الضحى.

٤- الليل. ٥- الفجر والصبح. ٦- الغروب والمساء.

١- النور والضوء:

يتكرر لفظ النور في قصائد كثيرة من قصائد ديوان الشاعر، بعكس لفظ الضوء .. على الرغم من أن كليهما مترادفان. وأحياناً يجمع الشاعر بينهما في بيت شعري واحد، فيبدأ بالنور أولاً و هذا طبيعي، ثم يتبعها بالضوء الذي هو بداية لمعان النور وظهوره. (١)

ففي قصيدته "القرية الهاجعة .. في ظل القمر" يقول الشاعر في البيت الثاني والثالث: (٢)

وسَدَّتْها الأضواءُ من لمحها الضافِي وســــــادَ الطبيعــــــة العبقــــــرِيّ

وَحَبَتْهـــــا المهـــــادَ موجـــــةَ نـــــورٍ أشـــــرقتْ في ترابهـــــا القُرْمـــــزيْ

وفى البيت الرابع عشر يقول الشاعر عن شجر السدر:

(١) انظر الديوان: ص ٢٤، ٣٠، ٣١، ٥١، ١٤١، ١٥٥، ١٦٢ للفظ الضوء، و ص ٣٦، ٩٨، ١٢٢، ١٢٣، ١٣٤، ١٤١، ١٤٥، ١٦٣، ١٦٥ للفظ النور. وأحياناً يأتي الشاعر بلفظ "السنا" كما في ص ١٥٧.

(٢) الديوان، ص ٥١، ٥٣.

لفَّعتْـه الأنـوارُ مـن بُردَهـا الـسَّامي بثـــوبٍ مـــن الـــسَّنا موْشـــيِّ

وفى البيت السابع عشر يقول عن شجر الدوم:

فاسـتطالتْ سـيقانُه تطلـبُ النجـوَى وتهفـــو إلى الـــوميضِ القـــصيِّ
كعــذارى سَـبَحْنَ في لجَّــةِ النــورِ هُيامـــــاً بفيـــــضِهِ اللّجـــــيِّ

وفى قصيدته "شاعر الفجر" يقول الشاعر في البيت السابع؛ جامعاً بين النور والضوء في بيت واحد: (١)

النـــوُر لـــمَّا صـــاحَ في جـــوَّه هلـــلَ بالأضـــواءِ مـــن فرْحتِـــهْ
ولاح كالنـــشْوانِ مـــن شـــدْوِه يـــرقص مـــن بـــشْرٍ علـــي صَـيْحتِهْ

إن النور له أبعاد رمزية متعددة في رؤى الشاعر، "فالنور حقيقة التغير، تغير الزمان بالزمان، والتاريخ بالتاريخ، والإنسان بالإنسان، وكما ارتبط الظلام بالعبودية والحرمان، والشر والعماء المطبق، غدا النور مرتبطاً بالحياة الجديدة في عالم الشاعر، النور اكتسب أبعاد القيم المثلى، ومن ثم ارتبط بتحقيق الحلم" (٢)

ومن الأبعاد الرمزية للنور .. أنه الطريق إلى الحرية وإشارة إلى تحطيم الذل وانكسار لجبروت الظالمين، كما أنه يشير إلى بداية بزوغ فجر الخير، وغروب مساء الشر، ليس هذا فقط، بل أيضاً يدل على ارتباط النور ببداية الحياة، ونهاية الموت. ولذلك عاش محمود حسن إسماعيل مضطرباً في بداية حياته، واقعاً في حيرة بين واقع مؤلم يعيش فيه، وعالم مقدس مثالي يتطلع إليه، "هذا العالم

(١) الديوان، ص ١٢٨.

(٢) التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل، ص ١٧٤.

المقدس الذي يرمون إليه - شعراء أبولو - كانوا يرمزون له بالفجر والصباح والنور والضياء، لعلهم يصلون من خلال ذلك إلي العالم الأبدي الصافي الطاهر النقي الذي يعيشون فيه حياة نورانية .. بعيداً عن أثقال الواقع المادي الذي يعيشونه" [١].

٢ـ الظلام

الظلام لفظ مطابق للنور، له أبعاد رمزية أيضاً في النسيج الشعري، يأتي أحياناً بلفظ الدجى، ليكتسب معنى الحرمان، والظلم، والمجهول والظمأ، واقتراب الشر، وتباعد الخير وانقطاع الأمل، وامتداد أحبال الموت .. إلخ من معان يكتسب الرمز من خلالها ثراه ونموه.

ففي قصيدة "أحزان الغروب" يجمع الشاعر بين كلمتي "الدجى والظلام"؛ وذلك في قوله: [٢]

ولا صـــدَي بومـــةٍ هتَّافـــةٍ نَعَبـــتْ فلم تدعْ في الدجى شجواً لمكروبِ
ولا الظلام سرتْ في الكون وحشُتهُ بهـاجسِ حالـك الأطيـافِ غربيـبِ

وفى قصيدة "شاعر الفجر" نلاحظ أن شاعرنا يجمع بين النور والظلام في بيت واحد؛ ليستكمل بها صورة الديك الذي قام يرتل أعذب الأنغام، احتفالاً بمجيء النور وانقشاع الظلام .. وهذا تأكيد من الشاعر على عشقه للنور الذي يمثل الأمل الجديد له، وكرهه للظلام .. الذي يمثل ضياع الحق والاستسلام للواقع. والديك لعله رمز للشاعر الذي لم يكف بعد عن الإنشاد، وترتيل أحلى الأنغام بصوت ندي رخيم. وهذا في قوله: [٣]

---

(١) في الشعر العربي الحديث، ص ٥٣.

(٢) الديوان، ص ١٢٠.

(٣) الديوان، ص ١٢٨، ١٢٩. انظر أيضاً الديوان: ص ١٨، ١٢٤، ١٤٥ حيث استخدم الشاعر كلمة "الدجي". و ص ١١٩، ١٢٠ حيث استخدم كلمة (الظلام) كل ذلك في ==

والـــــدِّيكُ لمـــــا رن في ســـــطْحِهِ صــوت نَـدِيٌّ اللحــنِ زاكــي الـنَّغَمْ
كــبرَّ حتــى خــفَّ مــن صــدْحِهِ مــن نــام في الكــوخِ ومــن لم يَـنَمْ
ورتَّــــل الأنغــــامَ في صــــبْحِهِ يُطْــرِي بهــا النَّــورَ ويهجــو الظُّلَــمْ

٣ـ الضحى

والمقصود به وقت ما قبل الظهيرة؛ حيث تتسع وتقوى أشعة الشمس، ويتلألأ الكون، ويصبح كل شيء واضحا لا غموض فيه. هذا الوقت تسعد فيه جميع الكائنات بضوء الشمس ولا سيما النباتات والطيور.

ولشاعرنا وقفة مع الضحى، يشارك فيها عناصر الطبيعة فرحتها وانتعاشها في هذا الوقت الممتع .. فلقد ملأت شمس الضحى ريق زهرة القطن من خمرة النور المشاع؛ وذلك في قصيدة "كنز الذهب الأبيض" البيت السادس: [(١)]

فتراهـــــا في الرَّبـــــي راقــــصةً زانهـــا الـــضوْءَ بزهـــوٍ والتِمـــاعْ
ذاتَ كـأسٍ أترعتْ شمسُ الضُّحى ريقَهـا مـن خمـرةِ النـورِ المُـشاعْ

ثم يبين الشاعر لنا مدي حب زهرة القطن لطيف الضحى، واكتئابها لوقت الأصيل؛ حيث شعاعه المخنوق الذي يوحى لها بالأحزان وانقباض الروح وانتظار الموت؛ وذلك في البيت الخامس عشر من القصيدة نفسها:

عانقـــــتْ طيــــفَ واكتأبــــتْ لأصــيلٍ لاحَ مخنـــوقَ الـــشعاع

والأمثلة على ذلك كثيرة، ولكن أجدرها بالذكر قصيدة "راهبة الضحى ..

==
إطار وصف الشاعر لإحدى الظواهر الكونية التي تمثل عنصراً مهماً في وصف الشاعر لعناصر الطبيعة العلوية.

(١) الديوان، ص ٢٤، ٢٥. انظر أيضاً الديوان: ص ١٩، ٣٩، ٧٤، ٧٨، ٨٩، ١٠٨.

الفراشة" والتي يصف من خلالها الفراشة وقت الضحى، حيث النشاط والحركة، وانتشار عطر الزهور، ولألأة الضياء وقوته، مما يدل على سعادة الكون بأسره .. ففي مقدمة القصيدة يقول: (١)

وراهبـــةٍ في الـــضُّحى أوْقَـــدَتْ ... مـــن الزَّهْـــرِ مَجْمَـــرةً ذاكيَـــهْ
إذا فـــاحَ منهـــا العبيُـــر النـــدىُّ ... وطـــوَّفَ في الأيْكـــةِ الـــضاحِيَهْ
تُـــصلِّى فتركـــعُ فـــوْقَ الغـــصونِ ... وتـــسجُدُ في معْبَـــد الرَّابيـــه

وفى البيت الثامن من القصيدة نفسها؛ يقول:

أحـــاَل الـــضُّحي رُوحهـــاَ نَغْمَـــةَ ... وسلْـــسَلها قطـــرةً فانِيَـــه

وفي البيت الرابع والثلاثين، يقول:

ولهْـــوَكِ في مُـــستَهلَّ الـــضحي ... بُـــسنْبلة الرَّبْـــوةِ النَّامِيَـــهْ

ثم في البيت السابع والثلاثين وما بعده ينادي الشاعر علي الفراشة التي أصبحت عابدة للنور؛ بقوله:

أعابـــدةَ النُّـــور .. مـــا للـــسَّنا ... أطـــارَ تـــسابيحَكِ الـــصابيَهْ؟
وحجّبَهـــا في ضميـــرِ الضُّحـــي ... سرائرَ فـــي جَيْبـــه خافيَـــهْ

ومن هنا تتضح صورة الضحى التي يقرنها الشاعر مرات مع صورة النبات، ومرة مع صورة الطير (الفراشة) وقد يشير ذلك إلى عدة دلائل رمزية للضحى .. ومن ثم فإن الرؤية الخيالية العميقة للشاعر قد تتضح إذا تم تحويل عناصر الكون إلى تجارب فنية مرهفة.

---

(١) الديوان، ص ١٦١، ١٦٢، ١٦٥.

٤ـ الليل

والمقصود به وقت ما بعد الغروب، وهو المقابل للنهار أو للضحى. والليل والنهار آنان متقابلان في دورة الفلك، ومتقابلان في الصورة الشعرية، ومتقابلان في الخصائص والآثار. أقسم الله بهما في قرآنه لأنهما محلان للتدبر والتفكر في أن هنالك يداً تدير هذا الكون، وتبدّلُ الليل والنهار بانتظام ودقة منقطعة النظير.

والليل عند الشاعر وقت عظيم للعبادة؛ حيث تهدأ العيون وتهجع الأجساد المتعبة الكالة من أعمالها الشاقة طيلة النهار .. كما أن الليل أيضاً مستودع لأحزان العشاق المعذبين بألم الهجر، وأنه مثار للأحلام الرومانسية التي لا حدود لها.

وعن بعض معاني الليل، يقول الشاعر: [1]

رهبـــانُ عبَّـــادونَ حـــازوا الهُـــدى ... لـــيلاً فمـــا في دَيْـــرهم كـــافِرُ
مـــن لم يُقِـــمْ منهـــو صـــلاةَ الـــدُّجى ... في النـــومْ أدَّاهـــا لـــه الـــسَّاهرُ
يْغفُـــونَ والكلَـــبُ علـــى مهْـــدهمْ ... ســـهرانُ لا يُغْفـــي لـــه نـــاظرُ
يَـــصرُخ إن أغرتْـــهُ أطياَفـــه ... أوراعـــه بالـــسَّطْوةِ الخـــاطرُ
إن غـــابَ نَجْـــمُ فـــوقهم سُـــحْرةً ... فهـــو علـــى أرواحِهَـــمْ حاضـــرُ
أو أرجـــفَ الليـــلُ ينـــادي بـــه ... حلفـــتُ باليـــلُ أنـــا الخـــافرُ
أَرْعَـــى عيونـــاً أمعنـــتْ في الكـــرَى ... وهالَهـــا بَحْـــرُ الـــرؤَي الزاخـــرُ

وفى أول بيت شعري من قصيدة "القرية الهاجعة .. في ظل القمر"

(١) الديوان: ص ١٧.

يقول الشاعر: [١]

لفَّهـا الليـلُ فاسـتراحتْ مـن الأيْـنِ ... علـى حَـضْنِهِ الرَّفيـق الهَنِـيْ
وسَّدتْها الأضواءُ من لَمْحها الضَّافى ... وسـادَ الطبيعـةِ العبقـرِيْ

ولعل نظرة الشاعر لليل تشبه نظرة أصحاب الاتجاه الرومانسي في أوروبا .. ذلك الاتجاه الذي اتسم بكثير من الخصائص الموجودة عند شعراء أبولو.

ومن شعراء الإنجليز الذين ألقوا بأنفسهم في أحضان الليل يبثونه أحزانهم، يستثيرون فيه شجونهم، ويستودعونه أسرارهم، وأنه سبيل الخلاص لما في هذا العالم من آلام: "شلى" في قصيدته "إلى "الليل" .. ومن الشعراء الفرنسيين "فيكتور هوجو" و "دي موسيه" [٢].

وعن شجون الليل وصمته، يقول الشاعر: [٣]

كأنَّـا حـين أرخَـى الليـلُ ... في صـمتِ دياجيـهِ
شـجونُ في ضـمير الريَّـفِ ... هاجتْهـا أماسـيهِ

ويقول الشاعر أيضاً، مبتدئا قصيدته "ثورة الضفادع": [٤]

هاجَهـا في الليـلِ صـمْتُ غمـرتْ ... كـلَّ نفْـسٍ فيـه آلام الـشجونْ
وضـفافُ غارقـاتُ في الكـرَي ... حالمـاتُ بأسـى الريـفِ الحـزينْ
نام فيها المـوجُ حتى خلْتُهـا ... خاصمت كل نسيم في الدجـون

(١) الديوان، ص ٥١.
(٢) انظر: في الشعر العربي الحديث، ص ٨٥.
(٣) الديوان، ص ١١٠.
(٤) الديوان، ص ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥.

ثم يقول:

خلتُهـــا والليـــلُ أعْـــشَى هـــابطُ بـــصداها في غيابـــاتِ الظنـــونْ
أُرْغُـــنَ الـــشيطانِ يـــشدو مُلْقيَـــاً ثـــورةَ الأنغـــامِ في وادي المنـــونْ

ثم يقول:

جاوبتْـــهُ في الـــدَّجى صـــافَرةُ من بنات البُوم صاحتْ في الوكونْ
تتحـــــدَّى الليـــــلَ في رهْبتـــــهِ لَـوْ يُجَلِّـي غـامضَ الـسر الكمـينْ

٥ـ الفجر والصبح

أما الفجر فهو الوقت الذي يفصل ما بين غسق الليل وتنفس الصبح، وأما الصبح فهذا الوقت الذي ما بعد الفجر إلى ما قبل شروق الشمس. وكلاهما من الأوقات المهمة لإبداع الشعراء، ومرتعاً خصباً لذوي المشاعر الرقيقة التي تترقب ساعة تنفس الحياة رويداً رويداً .. في فرح، وابتسام، وإيناس ، ولذلك أقسم الله بهما في قرآنه لأهميتهما في حياة البشر عامة، والملهمين من الشعراء خاصة.

ومحمود حسن إسماعيل ذكر الفجر في أكثر من ستة مواضع في الديوان منها موضعان فقط تقريباً جمع بين ذكره للفجر والصبح؛ وذلك في قصيدة "الزهرة بين الشتاء والربيع"، حيث تضحك الزهرة للفجر .. إيذاناً بالنور الذي يتمخض عنه ويكون كالطيف الرفاف الوديع. يا لجمال الطير حينما يشدو بعدما طال نومه !! ويا للجمال الزهور حينما تتنفس صباحاً في ربوع النيل الخصيب !! كل هذا الجمال التصويري البديع نستمع إليه في قول الشاعر: [١]

زهـــــرةُ الـــــوادي تجلَّـــــتْ كعـــــــــروسِ للربيـــــــــعْ

(١) الديوان، ص ٨٩.

زانهـــــا الحـــــسنُ بطـــــلَّ خـــــاطفِ اللمْـــــحِ لَمـــــوعْ
ضَـــحِكَتْ للفجـــرِ يـــضفو نـــــوُره فـــــوق الـــــزُّروعْ
ولَـــصبْحِ حـــالمِ كـــالطيفِ رفـــــــافِ وديـــــــعْ
ولـــصحْوِ الطـــيرِ يـــشدو بعـــد مـــا طـــاَل الهجـــوعْ
ولأْنفـــــاسِ الأقـــــاحى في رْبـــــى النيـــــلِ تـــــضوعْ

والموضوع الأخر الذي جمع الشاعر فيه بين الفجر والصبح في قصيدته "سنبلة تغني"؛ حيث قال على لسان سنبلة القمح: (١)

كلَّـــل الفجـــر جبينـــى بالنـــدى الغـــضِّ الرطيـــبِ
طيَّـــب الـــصبحُ مهـــادي بعـــبير الزعْفَـــرانِ

والشاعر أيضا في قصيدته "شاعر الفجر" أوضح لنا بأن الشعراء ملهمون، واسعو الخيال وقت الفجر، ألحانهم معنبرة زكية؛ لأنها تخرج من قلب ملأته طهارة الإيمان؛ وذلك في قوله (٢).

وشـــاعرٍ في الفجْـــر يَـــسْبى النُّهـــى بثـــوْرِة جلَّـــتْ عـــن المـــأثَمِ
خيالُـــهُ مـــن سِـــدْرَةِ المنُتهـــى ولحنُـــه هـــن وتَـــرِ الأنْجُـــمِ
معنْبَـــرُ اللَّحْـــنِ إدا مـــا شـــدا روجَّـــع الأنغـــام في فَجْـــرِهِ
وســـائرُ الكـــوْنِ لـــه معْبَـــدُ أترَعَـــهُ الإيمـــانُ مـــن طهْـــرِهِ

وأما الصبح فيكرره الشاعر ثلاث مرات في قصيدته "راهبة الضحى .. الفراشة"، المرة الأولى في البيت الثالث والعشرين، حينما طلب الشاعر من صديقته

(١) الديوان، ص ٧٣، ٧٤.
(٢) الديوان، ص ١٢٧، ١٢٨. انظر أيضاً: ص ١٨، ٣٢، ١٠٧، ١١٤، ١١٥، ١٥٨.

الفراشة أن تطير معه في سماء الخلال، حيث جنة الأحلام البعيدة عن هذا الكون المليء بكل أنواع الشر. فلا يرون عالماً صاخباً بالأذى، ولا زهرة تتفتح في الصباح وتقتلها أنواء المساء. وأن الأحلام في هذه الجنة باستطاعتها أن تنسيها ترانيم النحلة الشادية التي اعتادت الفراشة سماعها في دنيا الواقع .. كل هذا في قوله: [١]

تعـــالَيْ نطِـــرْ في سمـــاءِ الخيـــالِ ... ونهـــــفُ بجنَّتِـــــهِ النائيـــــهْ
بعيـداً عـن الكـونِ حيـثُ المنـى ... تَـــــرِفُّ بأظْلالِـــــه هانِيَـــــهْ
تـــروحُ عنـــا شـــجونَ الحيـــاةِ ... وتُطْفـــى لظَـــى الكبـــدِ الواريَـــهْ
ولا عـــــالَمُ بـــــالأذي صـــــاخبُ ... ودنْيـــــا بأشـــــباحِها زاريَـــــهْ
ولا زهـــرةُ تنتـــشى في الـــصباحِ ... بكـــأس النَّـــدي الحلـــوةِ الـــصافيةْ
ويـــــأتي المـــــسَاء بأنوائِـــــهِ ... فتـــسْقي أعاصـــيرُه الـــسافيهْ
أُغنَـــي لـــكِ الحـــبَّ يـــا طُهْـــرَهُ ... ويـــا قـــدْس أو طـــاِره الـــساميِهْ
خيـــالُ أســـاقيكِ فيـــه الهـــوِي ... طيوفـــــاً عـــــذاباً بألحانِيَـــــهْ
تُنـــسيكِ أحلامُهـــا في الـــصبَّاحِ ... تـــــرانيمَ نحلَتـــــكِ الـــــشادَيهْ
تـــرُوحُ وتغـــدوا علـــي ضَـــوْئِها ... وتمـــــرحُ في ظلِّهـــــا لاهيّـــــهْ
بـــسقْطين رفَّـــا كحُلْـــمِ الـــصباحِ ... تناجيـــــه سوســـــنةُ راويَـــــهْ

٦- الغروب والمساء

أما وقت غروب الشمس عند الشاعر فيمثل كل معاني الحزن والأسى .. حيث تجزع الشمس لموت النهار، وتبدد في حجب ضوئها .. تعبيرا عن أحزانها .. ويستمر الشاعر في تصويره لهذا المشهد الجنائزي المؤلم؛ معتمداً على التشخيص الذي يعد سمة فنية في شعر الطبيعة للشاعر محمود حسن إسماعيل.

(١) الديوان، ص ١٦٢ - ١٦٦. انظر أيضاً: ص ٢٧، ١٥٦.

ومن ذلك قوله في قصيدة "أحزان الغروب": [١]

ماتَ النهارُ وهذي الشمسُ جازعةٌ عليه تخطِرُ في دامي الجلابيب
كأنها نعْشُ (خوفو) مال مُتَّكِئاً على سرير بذوْبِ النورِ مخْضوبِ
أهرامُه الأفْقُ يجرى فوق ساحِلِه علي دمٍ من عيونِ الشرقِ مَسْكوبِ
مُلفَّفٍ في سحاباتٍ سَبَحْنَ به لشاطئٍ في ضميرِ الغيْبِ محجوبِ
عُصِّبْنَ بالشَّفقِ الباكى ولُحْنَ أسيً في مْوكبٍ رائع التَّسيارِ موهوبِ
كأنهنَّ وركْبُ النورِ مرتحلُ من ساحة النيل مُحْتَثٌّ لتأويبِ
رايـاتُ مصْرَ تهادتْ كي تشيِّعه بلاعجٍ من أساها جدِّ مشبوبِ

وهذا دليل يؤكد على امتزاج الشاعر بمظاهر الطبيعة امتزاجاً تاماً فيسبغ على لحظة الغروب أحزانه وكآبته. يظهر ذلك في شيوع الألفاظ الدالة علي الموت والفناء مثل: مات النهار - الشمس جازعة - دامي الجلابيب - نعش خوفو - دم من عيون الشرق مسكوب - ضمير الغيب محجوب - لحن أسى - وركب النور مرتحل وحشد الشاعر لصوره وألفاظه الموحية - في معظمها - بالحزن والكآبة والفناء والعدم يبرز ما في نفسه من المعاني الآسية التي لم ير أفضل من مظاهر الطبيعة المحيطة به مصباً لها. [٢]

وهنا سنبلة القمح ما إن يأتي عليها المساء حتى يتملكها الخشوع والرهبة من الليل القادم عليها، فإنها لا تدرى متى سيأتيها النهار لتستكمل حياتها من جديد؛ وذلك في قوله: [٣]

---

(١) الديوان، ص ١١٧، ١١٨.

(٢) في الشعر العربي الحديث، ص ٨١.

(٣) الديوان، ص ٧٣. انظر أيضاً: ص ٣٢، ٣٧، ١٤٨. وهناك قصيدة "نار الغروب" في ديوان "أين المفر"، المجلد الأول، ص ٧٩٣ تحمل المعاني السابقة أيضاً.

لـــــو رأى الرهبـــــانُ طهـــــري وصـــــــــلاتي في المغيـــــــــبِ
هجـــــروا الـــــدَّيْرَ وخـــــرُّوا سُـــــــجَّداً فـــــوق كثـــــيبي

وأما المساء "فإنه لحظة من اليوم لا تقابل النهار، بل هي كالبرزخ بينه وبين الليل. وهى لحظة تثير كامن الأشجان والأشواق الخفية في النفوس المرهفة الحس، وفيها تتعاقب الأضواء والظلال، ويتوقد الشفق ويخبو، وتعود الطيور إلى أعشاشها، والرعاة إلى ديارهم .. كل ذلك يجعلها لحظة وجدانية مثيرة خصبة يجد كل شاعر فيها من المعاني ما يمكن أن يكون رمزاً لما تجيش به نفسه من عواطف أو ذكريات أو أشواق" (١).

ويبدو أن الغروب عند الشاعر أشد حزناً وكآبة على نفسه من المساء .. وهذا واضح تماماً من خلال قراءتنا لقصيدة "المساء" والتي تبلغ أربعة عشر بيتاً على عكس قصيدة "أحزان الغروب" والتي تبلغ أبياتها خمسة وستين بيتاً.

في قصيدة "المساء" وصف الشاعر وجنة الشمس في احمرارها بالفتاة الجميلة الكاعبة التي تعانى مرارة العشق من الفراق، ثم وصف أزاهر القطن وهى تستمع لبكاء الأسير المقيد .. والمقصود به الثور .. الذي يرمز للفلاح المصري. ثم يأتي وصف لقاء المحبوبة رمزاً للطبيعة .. التي يشكو إلى سحرها ضعف قوته وقلة حيلته وكثرة بكائه. ومن ثم فإن رؤية المساء عنده ترتبط بمشاهدة الطبيعة في قريته .. بحقولها وزروعها التي تتحول إلى اللون الذهبي تحت ضوء الشمس وقت المغيب.

وفى ذلك يقول الشاعر: (٢)

ووجْنَـــةُ الـــشمسِ حـــين تبـــدو بـــشاطئِ الأُفـــقِ في احْـــتراقِ
كأنهـــا كاعـــبٌ تعـــانيِ مـــرارةَ العـــشْقِ في الفِـــراقِ

(١) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ص ٣٥٠.
(٢) الديوان، ص ٩٧، ٩٨. وهناك أيضاً ذكر للمساء، ص ٦٠، ١٢٢، ١٦٤.

أزاهـــرُ القطْـــنِ فيـــه لاحِـــتْ صـــــفراءِ عُذريَّـــــةَ العنـــــاقِ
تـــــصيخُ للجـــــدولِ المغنَّـــــى بمـــــدمَعٍ في الثَّـــــرى مُـــــراقِ
وتـــسْمعُ النـــوْحَ مـــن أســـيرٍ مُقيَّـــــدٍ هـــــامَ بالـــــسَّواقي
هنـــاكَ ألقـــاكِ يـــا فتـــاتى في عُزَّلَـــــةٍ بَـــــرَّةِ التَّلاقـــــى
أشـــكو إلى سِـــحْرِها دموعـــاً كالنـــــارِ في ذابـــلِ المـــآقي

ثالثاً: فصول السنة

كان لفصول السنة نصيب من الاهتمام في ديوان أغاني الكوخ، ولم تكن كلها على درجة واحدة من الأهمية لدى الشاعر، بل كان يفضل فصل الربيع عن غيره من الفصول؛ لأنه كالفجر الذي يعيد للحياة روحها بعدما أزهقتها سآمة الليل.

إن الربيع عند محمود حسن إسماعيل بهجة الحياة، وحياة البهجة .. تسعد الزهور والنباتات بمقدمه، وتغرد البلابل لرؤيته، وترتل السواقي أعذب الألحان لتشارك الصبايا ترانيمها والرعاة أناشيدها؛ وذلك في قوله على لسان السنبلة وهي تغني: (١)

كـــــم ربيـــــع نـــــاعم الآ صـــــالِ طَلْـــــقِ الغـــــدَواتِ
نمْـــتُ فيـــه عفَّـــةَ المهـــدِ بحـــــضْنِ الرَبـــــواتِ
بـــين ترتيـــل الـــسواقي وزفيـــــفِ الـــــنَّحَلاتِ
وتـــــرانيم الـــــصبايَا في ســـــكونِ الطرقـــــاتِ
والـــصدَى المـــشبوبِ حـــولي مـــن أناشـــيدِ الرَعـــاةِ

(١) الديوان، ص ٧٥. وفي المعني نفسه، انظر: ٧٩، ٨٩، ١٥٦.

ولعل الربيع هنا رمز للحرية المصرية التي يشيد بها الشاعر، وينشدها في الوقت نفسه لكل فلاح مصري يعيش على أرض الوطن وقتئذ.

أما الصيف فإنه يرمز إلي الظلم وقسوته، والذل وآلامه علي نفوس البشر. علماً بأن سنبلة القمح هي رمز للفلاح المصري الذي يمثل صورة خالدة للتضحيات؛ وذلك في الأبيات التالية التي جاءت لتقابل الصورة السابقة للربيع:

ودنـــا الـــصيفي فـــشابَتْ ... مـــن لظـــاهُ سَـــبلاتي
وذَوَى عـــودى ولـــفَّ ... المِنْجَـــلُ القاسِـــي حيـــاتي
وتحطَّمْـــتُ فأحيـــا ... النـــاسَ عـــيشُ مـــن رفـــاتي
أنـــا في غرْسِـــي وحـــصْدِي ... وحيـــاتي ومماتِي
مثـــلُ أعلـــي ورمـــزُ ... خالـــدُ للتـــضحياتِ

والمعنى نفسه يتكرر في رسم صورة قاسية لحرارة الصيف وآثارها على زهرة القطن التي لا تطيق التنفس من شدة الحرارة، فإذا بها ترتدي برنساً من ذهب أبيض تتوج به رأسها لتتقى به قيظاً حارقا لها. وذلك في قوله: [1]

وأتاهـــا الـــصيفُ وهَّـــاج الـــسَّنا ... يـــضرِمَ الأنفـــاسَ نـــاراً في البِقـــاعْ
فارتـــدتْ بُرْنُـــسَها مـــن ذهـــبٍ ... أبـــيضٍ تـــوَّجَ هامـــاتِ الـــضّياعْ
ذاك تـــاجُ النيـــلِ فانـــدبْ عنـــدّهَ ... أمـــل الفـــلاَّحِ والجُهْـــدَ المُـــضَاعْ

وأما الخريف فإنه "يتخذ بين الفصول وضع المساء بين ساعات اليوم، فيغدو رمزاً لكثير من المشاعر المتناقضة المتراوحة بين الأسي الشفيف، والحنين إلي المجهول والشعور بالفناء، والإحساس بالألوان في تحولها بين الصيف و"الشتاء،

(١) الديوان، ص ٢٦. و لعل قصيدة الشاعر "جلاد الظلال" في ديوانه "أين المفر" ص ٦٧١ من المجلد الأول، ما يؤيد بأن الصيف رمز للظلم الذي يضيع معه أمل الفلاح .. فالشاعر في هذه القصيدة تخيل بأن القيظ جلاد يمسك في يده سياط اللظى المتأجج ويجلد به الظلال.

والأنسام في انتقالها بين الحر والبرد" [١]

والشاعر قد وصف الخريف بأن الرياحين - التي تشبه شعر محبوبته - فيه ذابلات، صفراء اللون، تتهالك شيئاً فشيئاً إلى أن تصبح كأربطة الحرير الأسود. وهنا يعكس الشاعر من خلال هذا الوصف ما تثور به نفسه من مشاعر وأحاسيس؛ حيث إن القصيدة في مجملها مهداة إلي الجبين الطاهر الذي فارقه الشاعر، ووصف من خلالها خصلة الشعر؛ وفي ذلك يقول الشاعر: [٢]

مـــــا لِـــــشَعراتِكِ صُـــــفْراً كريـــــــاحين الخريـــــــفْ؟
ذابـــــــلاتٍ تتهـــــــاَلكْن بمُـــــــسودٍّ الـــــــشُّفوفْ

على هذا النحو كان شعراء أبولو يصفون الخريف متأثرين بما جاء عن شعراء الغرب الرومانسيين؛ فالخريف على وجه الخصوص لا يلتفت إليه أصحاب الوجدان الذين يدركون ما تحمل هذه الأمور من دلالات ورموز .. "والشاعر الوجداني يطلق لعواطفه وخياله العنان، ويمزج بين إحساسه ومشاهد الطبيعة والحياة من حوله، فيرى فيها ما قد لا يراه الشاعر الموضوعي" [٣]

وأخيراً .. **يأتي الشتاء** بهمومه وأحزانه على الزهرة التي باتت تبكي وترثى مجيىء الشتاء الذي اصطحب معه برده وصقيعه اللذين يقومان بتعرية الزهر من حليه الجميل، وكساه البديع فترة طويلة من العام، حتى أوشك علي الممات لولا الربيع الذي جاء إليها فأعاد رونقها وجمالها وبهاءها السابق. ولذلك جاءت المقابلة التصويرية بين الشتاء والربيع في قصيدة الشاعر "در ودمع - الزهرة بين الشتاء والربيع" لتؤكد المقابلة التصويرية السابقة بين الربيع والصيف في قصيدة الشاعر "سنبلة تغنى" والتي تعرضنا لها سابقاً.

---

(١) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ص ٣٥٤.

(٢) الديوان، ص ١١٤.

(٣) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ص ٣٥٤.

ومن الملاحظ أن وصف الشاعر لحالة الزهرة في الربيع أكثر من وصفه لحالتها في الشتاء، والذي جاء في أربعة أبيات فقط في قصيدته "در ودمع" بدلاً من وصفها في الربيع في ثمانية أبيات.

ومن ذلك، قوله: [1]

وبكـــــتْ ترثـــــى شـــــتاءً حـــــائلا يـــــشكو النـــــزوع
كـــم أســـاها حـــين أذْواهـــا بـــــــبرْد وصـــــــقيعْ
فتعـــــرَّى مـــــن كـــــساءٍ مـــن حُلَـــى الزهـــرِ بـــديعْ
عــــاش عُرْيانـــــاً فلمـــــا مـــــاتَ وشَّـــــاهُ الرَّبيـــــعْ

وتجدر الإشارة إلى ذكر بعض أنواع من الرِّياح، منها:

رياح الصبا أو النسيم ثم ما يقابلها من ريح الآسي التي تصحب معها العواصف العاتية، فتهلك الحرث والنسل.

أما رياح الصبا، والنسيم العليل فيأتيان في المساء فينعشان السنبلة بعدما أخذتها سنة من النوم، فإذا بها تظهر في أبهى صورة من صور الخشوع لتكون تمثالاً للجمال، ورمزاً للحسن.

وذلك في قوله: [2]

وســـنُبلةٍ فـــوق صـــدْر الكثيـــبِ تـــصيخُ لأحلامِهـــا في هُجـــودْ
تهــــبُّ لإيقاظهـــــا في المـــــساءِ ريـــاحُ الـــصَّبا والنـــسيم الوئيـــدْ
فتخْفـــــقُ أهـــــدابُها للريـــــاحِ وتهفـــــو ذوائبُهـــــا للـــــسجودْ
فتبـــــدو كخاشـــــعةٍ للجمـــــال وقـــد لاح تمثالُـــهُ مـــن بعيـــدْ

---

(١) الديوان، ص ٩٠.

(٢) الديوان، ص ٣٢.

وفي المعني نفسه تقريباً ، وفي قصيدة "عند زهرة الفول" يقول الشاعر: [١]

فهنـــا الـــسنبلُ المـــرنَّحُ يهفـــو في مهـــبَّ النـــسيم حينـــاً ويـــسْجُدْ

وأما عن الريح .. فهي تحمل أحياناً معني الخراب والدمار؛ وذلك في مثل قوله: [٢]

عفَّـــرتْ ريـــحُ الأســـي كِـــسْرتَهُ وطـــوَتْ نعمـــاءَه دنيـــا الـــصراعْ

وأحياناً أخرى تحمل معنى القوة الشديدة؛ وذلك في مثل قوله عن حاملة الجرة: [٣]

إذا دهتْهـــا الـــريحُ أبـــصرْتَها حمامـــةً تفـــزَعُ مـــن باشِـــقِ

(١) الديوان، ص ٧٧. وأيضا، ص ١٤٨، ١٥٦، ١٦٤.

(٢) الديوان، ص ٢٦.

(٣) الديوان، ص ٤٦.